كتاب الإصلاح

سلسلة كتب الكترونية توزع مجانا عبر البريد الالكتروني وصفحات التواصل الإجتماعي

السيرة النبوية وفقه الأولويات

تطبيقات في الواقع الأوروبيّ

المؤلف

الهادي بريك

الكتاب السابع والأربعون - مارس 2023

يوزّع مجّانا عبر البريد الألكتروني

السيرة النبوية وفقه الأولويات

تطبيقات في الواقع الأوروبيّ

المؤلف

الهادي بريك

كتاب الأمة

العدد السابع والأربعون

ر.د.م.ك: 5 - 188 - 78 - 9938 - 978 :ISBN

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

كتاب الأمة

سلسلة كتب الكترونيّة توزع مجّانا عبر البريد الالكتروني وصفحات التواصل الإجتماعي

مدير السلسلة

م.فيصل العش

Faycalelleuch@gmail.com

الأفكار والمواقف الواردة في هذا الكتاب لا يتحمّل مسؤوليتها إلاّ صاحبها

كتاب الإصلاح العدد 47

المؤلف:الهادي بريك

الكتاب:السيرة النبوية وفقه الأولويات

تطبيقات في الواقع الأوروبيّ

الصدور : مارس 2023

نسخة الكترونية - يحجّر نسخها ورقيا

ISBN 978-9938-78-188-5

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله

الفهرس

مقدمة	8
خطّة البحث	10
المحور الأوّل: أيّ مرجعيّة للسّيرة النّبوية؟	11
الباب الأوّل: بين السّنة والسّيرة	12
الباب الثاني: السّيرة بين القرآن الكريم وغيره من المصادر	21
المحور الثاني: فقه الأولويّات	30
الباب الأوّل: المعنى والحاجة	31
الباب الثاني: أمثلة عمليّة	36
المحور الثالث: الواقع الأوربّي والتّطبيقات الممكنة فيه	45
الباب الأوّل: خصائص الواقع الأوروبّي علاقة مع الوجود المسلم	46
الباب الثاني: أمثلة من التّطبيقات الأوروبيّة	53
الباب الثالث: التّطبيقات الأوروبيّة الممكنة	129
كلمات أخيرات ثلاث	147

الإهداء

أهدي هذا الكتاب إلى سيّدي محمّد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم

الذي من سيرته الشّريفة ننهل في كلّ معركة جديدة من معارك الحياة

ما به يكون لنا سلاحا فتّاكا نقاوم به أهواءنا وشهواتنا

كما أهديه إلى والديّ اللّذين تكبّدا حتّى أتعلّم

ما به يكون لي نبراسا في الحياة يضيء إدلاماتها

وأهديه إلى كلّ من علّمني يوما حرفا أو قيمة

وأهديه إلى كلّ المقاومين من الأحرار في كلّ أصقاع الدّنيا

لأجل كرامة الإنسان وحرمته وحفظ بيضات البلدان

وأهديه إلى الصّديق المهندس فيصل العشّ

الذي يقاوم بالقلم

وأحمد اللّه سبحانه الذي علّم الإنسان ما لم يعلم

مقدّمة

عنوان هذا البحث (السّيرة النّبويّة وفقه الأولويّات : تطبيقات في الواقع الأوروبّي) ليس من عندي. إنّما هو من قيادة المجلس الأوروبّيّ للأئمّة. إلتقطت هذا العنوان متوكّلا على الله سبحانه لعليّ أظفر فيه بما يسيل مداد أقلام هي به أجدر علما ومعرفة وتجربة.

يحيل العنوان إلى دلالات ثلاث لا مناص من معالجتها منفصلة من قبل إعادة تركيبها. إذ هي مركّب إضافيّ بلسان أهل اللّسان. العناوين الفرعيّة الثّلاثة هي : السّيرة النّبويّة من جهة وفقه الأولويّات من جهة أخرى والواقع الأوروبّيّ من جهة ثالثة أخيرة. السّؤال المفتاح هنا هو: أيّ صلة بين هذه المركّبات الثّلاثة؟ ذلك هو المنهاج الذي أظنّه الأنسب لحسن معالجة هذا الموضوع الحيويّ في حياة الوجود الأوروبّيّ المسلم. هو وجود مسلم فهو إذن مرتبط بالضّرورة بالسّيرة النّبويّة. إذ أنّ صاحبها ـ عليه السّلام ـ هو الأسوة الحسنة والقدوة المباركة لكلّ مسلم ولكلّ وجود مسلم. لقوله سبحانه في سورة الأحزاب المدنيّة {الآية 21} (لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا). وهو وجود أوروبّيّ فلا مناص إذن من توفير مناخ فكريّ وعمليّ كفيل بحفر حياة إسلاميّة أوروبّية وفيّة للإسلام من ناحية وللواقع الأوروبّيّ

من ناحية أخرى على غرار الحياة الإسلاميّة التي قادها جعفر بن أبي طالب ـ عليه الرّضوان ـ في الحبشة ومن معه من الأصحاب الكرام. وهي بلاد مسيحيّة بالكامل قيادة وأمّة. وبما أنّ البيئة الأوروبّية غير مؤهّلة لإحتضان الحياة الإسلاميّة بجماعها كلّه وفي كلّ أبعادها وآفاقها فإنّه لا مناص من إجتراح خارطة طريق توافقيّة بين ما لا بدّ منه دينا من جهة وما لا بدّ منه تعايشا سلميّا مع هذا الواقع من جهة أخرى. وذلك هو معنى الموازنة بين أمرين بينهما تنافـــــر. ومن الموازنة بينهما يترجّح هذا السّبيل ليكون أولويّة مقدّمة ويكون غيره من السّبل أولويّة مؤخّرة. إذ لا تتمحّض الحياة العامّة بين النّاس ـ حتّى في المجتمعات المسلمة القحّة كابرا عن كابر وأبا عن جدّ ـ خيرا محضا مطلقا لا شرّ فيه ولا شرّا محضا مطلقا لا خير فيه. ومن ذا فلا مناص من إجتهاد من أهله وفي محلّه لأجل إجتراح توافقات ومصالحات وموازنات وأولويات مرتّبة بحسب معيار الإسلام من جهة وحاجات الواقع وضرورات العيش من جهة أخرى. تلك هي الهندسة الفكريّة لهذا الموضوع. كما نهجت فيه الجمع بين حاجتين عالجتهما السّيرة النّبويّة ذاتها : حاجة هذا الوجود إلى منهاج فكريّ وعمليّ في الآن ذاته يوائم بين تعليمات الدّين من جهة وضرورات الواقع من جهة أخرى. وحاجة ذلك الوجود نفسه إلى إصلاح شأنه في مختلف الحقول تعبئة وتوعية وتثقيفا وإهتماما بما يؤهّله داخليا لخوض الحاجة الأولى. أي المواءمة بين دينه ووطنه. ذلك أنّ الحاجتين متلازمتان متكافلتان. فلا تقوم أولاهما إلاّ بقيام الأخرى

خطّة البحث

المحور الأوّل : أيّ مرجعيّة للسّيرة النّبويّة في ترتيب الحياة؟

الباب الأوّل : بين السنّة والسّيرة

الباب الثّاني : السّيرة بين القرآن الكريم وغيره من المصادر

المحور الثّاني : فقه الأولويّات

الباب الأوّل : المعنى والحاجة

الباب الثّاني : أمثلة عمليّة قديما وحديثا

المحور الثّالث : الواقع الأوربّيّ والتّطبيقات الممكنة فيه

الباب الأوّل : خصائص الواقع الأوروبّيّ علاقة مع الوجود المسلم

الباب الثّاني : أمثلة من التّطبيقات

الباب الثّالث : خلاصات جامعة للتّطبيقات الأوروبّيّة الممكنة في واقعنا

المحور الأوّل
أيّ مرجعيّة للسّيرة النّبوية؟

الباب الأوّل: بين السّنة والسّيرة

حدود لغويّة

السّنة : كلمات ثلاث تشترك في هذا الجذر وتختلف جزئيّا فحسب في المعنى والدّلالة

السّنة : بكسر السّين : هي النّوم الخفيف. أو الإملاجة الأولى منه. وهي عادة ما تكون خفيفة. حتّى إنّه عليه السّلام أباح للصّحابة الذين تغشاهم تلك السّنة وهم قعود في المسجد في حالة إتّكاء على بعض سواريه أن يصلّوا من دون حاجة إلى إسباغ الوضوء من جديد. بل إنّ بعضهم يصدر عنه حينها بعض الشّخير. وأخبرنا الله سبحانه عن نفسه تنزيها وتقديسا أنّه (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ). والسّنة هنا من فعل : أسن يأسن أسنا. فهو آسن. أي في حالة هدوء وربوض ويقين. مثل الماء الآسن الذي ليس به حراك. يقن الماء في حوضه : لبث. فهو معرّض إذن أكثر من غيره إلى أن يغشى بالجراثيم الضّارّة. ومن ذا نهى عليه السّلام عن التّبوّل فيه. الإشتراك بين الماء الآسن وسنة النّوم هي أنّ كلاهما في حالة هدوء

السّنة : بفتح السّين : هي المدّة الزّمنيّة المعروفة. وهي وحدة مقياس

وآلة معيار وحسبان لترتيب الحياة الدّينيّة والدنيويّة للنّاس. وتسمّى في العادة سنة نسبة إلى القمـــــر. قال سبحانه في سورة الكهف (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا). أي ثلاثمائة سنين قمريّة. وإزدادوا تسعا أخرى توافقا مع الحساب الشّمسيّ. كما تسمّى عاما نسبة إلى عمومها. وتسمّى أيضا حولا كما في قوله سبحانه (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ). وتسمّى أيضا ذا حجّة. نسبة إلى آخر شهورها بالحساب القمريّ. إذ قال سبحانه على لسان شيخ شعيب (إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ). أصلها فعل : أسنّ يسنّ إسنانا. أي عمّره الله سبحانه من السّنين عددا. فهو مسنّ. أو أنّه أسنّ من سواه مبالغة. كما أنّ السّنة في اللّغة تعني القحط لقوله سبحانه (ولقد أخذنا آل فرعون بالسّنين). أي بالسّنين الطّويلة التي ليس فيها غيث ولا كلأ ولا عيش. وهي كناية

السّنّة : بضمّ السّين : هي الطّريق والسّبيل والنّهج. وأصلها فعل : سنّ يسنّ سنّا وسنّة. قال سبحانه (سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ) سنّة الله هي طريقته في هذا الفعل أو ذاك. كما قال ﷺ (عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الرّاشدين المهديين) أي عليكم بمنهجي في الحياة وطريقتي في التّديّن ومسلكي في معالجة الأمور وبمثل ذلك تأسّيا بالخلافة الرّاشدة المهديّة الأولى. كما قال ﷺ في حديث آخر (لتتّبعنّ سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع). إختلفت الرّوايات هنا في كلمة (سنن) هل هي بفتح السّين أو بضمّها. وفي الحالين فإنّ المعنى واحد. وهو التّحذير النّبويّ والنّذارة منه عليه السّلام ـ وهو نبوء كذلك ـ أن نقتفي آثارهم أو نطرق طرقهم وننهج مناهجهم في الحياة فنضلّ

أيّ صلة بين هذه الكلمات ذات الجذر الواحد؟

الجذر اللّغويّ الواحد الأصليّ هو (س ن ن). وتيسيرا للنّطق أوّلا وللرّسم من بعد ذلك

أصبح الجذر (سنّ). وإشتقّت منه هذه الكلمات الثّلاث : سنة بكسر السّين وسنّة بضمّ السّين وسنة بفتح السّين. أصل الجذر لسانا هو الصّقالة والملاسة والجلاء والوضوح والبروز. ولذلك يقال لغة للوجه سنّة. وكذا للصّورة. وما ذاك سوى لصقالته وملاسته وهو مجمع المحاسن كما يقال. فكأنّه لفرط بروزه مجرود من اللّحم بارز العظم. الشّيء المسنون هو المخروط خرطا منظوما حسنا جميلا. ومن ذا سمّيت عظام الأسنان أسنانا. ومفردها سنّ. بسبب بروزها وصقالتها وملاستها وظهورها وهي من أمارات الجمال وعلامات الوسامة. العلاقة بين كلّ تلك الإشتقاقات ذات الجذر الأوّليّ الأصليّ الواحد هي صفة البروز والظّهور وعدم الخفاء. ومن ذلك أنّ السّنة ـ بفتح السّين ـ مدّة زمنيّة معلومة عند النّاس معروفة بينهم. وعلى أساسها ترتّب حياتهم. و أنّ السّنة ـ بكسر السّين ـ شيء ظاهر به يعرف النّائم ـ أو من هو في الطّريق إلى النّوم ـ من اليقظان. وممّا نقل الصّحابة عنه ﷺ أنّه إذا دخل على قوم فيهم اليقظان والوسنان (نسبة إلى السّنة) فإنّه يسلّم سلاما يسمع اليقظان ولا يوقظ الوسنان. وأنّ السّنة ـ بضمّ السّين ـ هي الطّريق التي يتوخّاها الإنسان ـ فردا أو جماعة ـ في الحياة فهي سنّته. أي مسلكه فيها ومنهجه الذي به عرف بين النّاس أو عرفت به الأمّة الفلانيّة بين الأمم. وأنّ كلّ تلك المعاني الثّلاثة ظاهرة بارزة معروفة معلومة لا تخفى كما لا تخفى الأسنان التي تزيّن

فم صاحبها أو ترى عند حديثه. السّنة من حيث أنّها طريق منتظمة إنتظام الأسنان فهي لا تتخلّف

السّيرة : من فعل سار يسير سيرا وسيرة ومسارا. فهو سيّار في الحياة. إذ كلّ شيء كادح إليه سبحانه كدحا فملاقيه. لم ترد كلمة (السّيرة) في القرآن الكريم إلاّ نسبة إلى جذرها الأوّل في قوله سبحانه (وجاءت سيّارة) أي قافلة من النّاس بعيرهم يسيرون إبتغاء مقصد لهم. ولكن ورد فعلها الأصليّ الأوّليّ مرّات. في مثل قوله سبحانه (سيروا فيها ليالي وأيّاما آمنين). ولم ترد كلمة السّيرة كذلك في الحديث النّبوي بالمعنى الذي إجترح من بعد ذلك نسبة إليه ﷺ. السّيرة هي منهاج الحياة الذي يختاره الإنسان أو تتوخّاه أمّة. ولم يستخدم الصّحابة هذه الكلمة بالمعنى المتأخّر. ولكن لا مشاحّة ولا غضاضة. إذ العبرة بالمعاني أبدا وليست بالمباني

بين السّنة والسّيرة لسانا

إشتراك فعل (سنّ) مع فعل (سار) في ثلث الجذر ـ والثّلث كثير ـ يعني إشتراكهما في جزء مهمّ ومعتبر من المعنى. ومن ذا فإنّ السّنة ـ بمعنى الطّريق ـ والسّيرة ـ بمعنى منهاج الحياة وإعادة بناء تفاصيله وجزئياته يشتركان في معنى الخارطة العامّة للحياة عدا أنّ السّنة هي الطّريق بصفة عامّة ومنهاج المعالجات. أمّا السّيرة فهي تفاصيل تلك الحياة وجزئيات ذلك المنهج مفرّقا على الزّمان والمكان والحاجة والضّرورة والسّعة

حدود إصطلاحيّة

السّنة إصطلاحا هي ما نسب إليه ـ ﷺ ـ من قول أو فعل أو إقرار. وهي تختلف تعريفا وحدّا بين الفقهاء والأصوليّين والمحدّثين. إذ أنّ الوعّاظ يضيفون إليها حالاته اليوميّة التي هي أدنى إلى خصوصيّاته البشريّة. أمّا السّيرة إصطلاحا فهي إعادة تركيب حياته كلّها من يوم ميلاده ـ عليه السّلام ـ إلى يوم مماته وذلك لتشمل سيرته حياته قبل البعثة وبعد البعثة. مشروعية ذلك هي أنّ ربّه سبحانه يرعاه ويصطفيه على عينه ويصطنعه كما فعل مع كلّ أنبيائه. وقد ذكر ذلك عن موسى عليه السّلام إذ قال فيه (وإصطنعتك لنفسي). بل قال سبحانه عن محمّد ﷺ (فإنّك بأعيننا). ومحمّد ﷺ هو أولى بذلك بسبب عموم شريعته وخاتميتها وغير ذلك ممّا فيه من خصوصيّات. ومن ذلك فإنّ التّأسّي به ﷺ لا فرق فيه بين أن يكون قبل البعثة أو بعدها. ولا علاقة لهذا ـ هنا ـ بين سنّة تشريعيّة ملزمة وسنّة أخرى لا تشريعيّة أو لا ملزمة. هذا مجال بحث آخر ليس هنا محلّ بسطه

كلمة أخرى عن السّيرة

ومن هنا فإنّ السّيرة تختصّ بفعله وعمله ﷺ أو تكاد تستأثر بذلك. ولكن بإشتراك مع سنّته التي تقوم كذلك على فعله وعمله جنبا إلى جنب مع قوله وإقراره. كما إجترح العلماء قاعدة أصوليّة مهمة متعلّقة بسيرته وهي قولهم أنّ فعله ﷺ لا يفيد أكثر من المشروعيّة والإباحة والجواز. ولا يصرف ذلك إلى الإيجاب بدعوى التّأسّي به ﷺ - إيجابا يعاقب تاركه بدون عذر ـ إلاّ بقرينة صارفة قويّة ناهضة لا تقاوم. ولكم تكون هذه القاعدة الأصوليّة نافعة للنّاس. إذ أنّ الجهل بها أكبّ شبابا كثيرين في

العقود الأخيرة في جهالات وحماقات بسبب إعتقادهم أنّ كلّ ما فعله عليه السّلام أو قام به أو عمله وفي أيّ حقل أو ظرف هو سنّة متّبعة ملزمة. من دون تمييز بين مقاماته ﷺ. أو بين سيرة وسنّة. أو بين عمل إقترن بقول أو أمر وبين عمل إقتضته مناخات أخرى مختلفة. وغير ذلك من التّمييزات التي يضلّ من يجهلها. ولو كان فعله كلّه جملة وتفصيلا سنّة متّبعة فإنّه علينا اليوم أن نهاجر بالكليّة وأن نغزو وأن نصالح وأن نعقد الهدنات وأن نباذل بالمال غازيا. وغير ذلك ممّا يكون منزوعا من ملابساته ولا يفضي إلى ثمراته المقصودة. ومن ذا فإنّ التّمييز بين السّنة والسّيرة بصفة عامة ومع رعاية الإشتراك بينهما من جهة والأخذ بهذه القاعدة الأصوليّة من جهة أخرى لا مناص منه لحسن التّديّن فرادى وجماعات

أيّ تمييز بين السنّة والسّيرة إذن؟

رغم ذلك الإشتراك بينهما في الإصطلاح وقبل ذلك في اللّسان فإنّهما يتميّزان بعضهما عن بعض. أولى التّمييزات هي أنّ السّنة ملزمة للمسلم فردا وجماعة إلزاما شرعيّا لا خلاف فيه ما إستطاع إلى ذلك سبيلا. وذلك بسبب أنّ السّنة هي المذكّرة التّفسيريّة للقرآن الكريم فهي منوط بها تبيينه كما ورد ذلك في الكتاب العزيز نفسه مرّات. والتّبيين يكون قولا وعملا وإقرارا. إذ لا يمكن لأيّ مسلم ولا أمّة أن تتّبع الكتاب من دون العودة إلى السّنة. وخاصّة فيما هو ألصق بالدّين وأدنى إلى العبادة. ومن ذا جاءت السّنة هنا صحيحة صريحة إمّا تؤكّد الكتاب أو تبيّنه بمختلف مظاهر التّبيين المعروفة عند طلبة العلم تقييدا لمطلق أو تخصيصا لعامّ أو تبيينا وتفصيلا لمجمل أو إستقلالا تشريعيّا وظيفيّا لا إبتدائيّا إستئنافيّا

جديدا. إذ أنّ خطام التّشريع عند الله وحده سبحانه. السّنة إذن بمعناها القوليّ والعمليّ والإقراريّ ما صحّت وثبتت فهي ملزمة قولا واحدا. وهي مصدر التّشريع الثّاني. ولا تديّن من دونها. أمّا السّيرة فهي غير ملزمة سيما للفرد الفذّ. هي غير ملزمة بسبب أنّ السّنة تكفّلت بتبيين الدّين وليس هناك من الدّين ما لا أثر له في السّنة فيبحث عنه في السّيرة. وهي غير ملزمة كذلك بسبب أنّها غير مسندة في الأعمّ الأغلب كما هو معروف. بخلاف السّنة التي هي محلّ نقد ونخل وجرح وتعديل في رجالها الرّواة ونسائها فردا فردا وبدون أيّ مجاملة ولا تحامل. ولا ريب أنّ عدم إسناد السّيرة إسنادا يثبت ورودها كما هو الحال في السّنة لدليل على أنّها غير ملزمة. وهي غير ملزمة كذلك بسبب أنّها عادة ـ وليس دوما سيما في محطّاتها الكبرى ـ متوافقة مع الزّمان والمكان والحاجة والضّرورة وغير ذلك ممّا لا مناص منه تلبية لمطلب أو دفعا لضرر أو معالجة لموقف بما يناسبه حتى لو كان خلاف الأصل. ومن ذا ولد فقه مقامات المشرّع. وهو المقصود به ﷺ في هذا العلم. لو كانت السّيرة ملزمة لكلّ مسلم ومسلمة لكنّا عصاة إذ لم نصالح هؤلاء ونحارب أولئك ونستقبل وفود غيرهم وإذ لم نهاجر أو نعقد الإتفاقيّات وغير ذلك ممّا إمتلأت به السّيرة. لتلك الأسباب الثّلاثة ـ وغيرها ممّا قد نعالجه في مظانّه إن شاء الله ـ فإنّ السّيرة ـ بخلاف السّنة ـ غير ملزمة وخاصّة للفرد الفذّ

مساحات إشتراك بين السّنة والسّيرة

وبالرّغم من التّمايز بينهما فإنّ مساحات إشتراك كثيرة تجمع بينهما. ذلك أنّ السّيرة في عمومها هي المحطّات الكبرى في حياته عليه السّلام سواء

قبل البعثة أو بعدها. وفي أثناء تلك المحطّات الكبرى فإنّه يبيّن للنّاس عند طروء الحاجة ما لا مناص منه لدينهم أو عبادتهم في أيّ حقل من الحقول. من ذلك مثلا أنّه في واقعة خيبر ـ وهي محطّة من محطّات السّيرة الكبرى والمعروفة ـ كانت السّيرة هي تأمير رجل يقود المعركة (وهو الإمام عليّ). وأنّ راية جهاد رمزيّة يحملها القائد. وأنّ الواقعة جاءت بسبب إحتماء قادة بني النّضير ـ زعيمهم خاصّة حيي بن أخطب ـ في خيبر المحصّنة بالمعاقل والبنيان الشّاهق. وأنّ أولئك القادة وغيرهم يعدّون لثأر حربيّ إنتقاما لإجلائهم من قراهم قبل ذلك. في حين أنّ تلك الواقعة إشتملت في أرحامها على بعض السّنن النّبويّة من مثل نهيه عن أكل لحوم الحمر الأهليّة على خلاف في العلّة من ذلك. وهذا لا يعنينا الآن. هي واقعة إذن إشتملت على سيرة وسنّة معا. وقس على ذلك أكثر محطّات السّيرة إذ أنّ محطّة السّيرة عادة ما تدوم أيّاما أو أسابيع أو شهورا. ومن ذا فإنّه لا مناص من أن يبيّن للنّاس ـ ﷺ ـ ما يعنيهم في أمر دينهم وجزئيات حياتهم في تلك الأثناء. ذلك هو معنى أنّ الحقلين ـ السّنة والسّيرة ـ يشتركان في مساحات ويتميّزان في أخرى. ويستوي أن يكون ذلك بعد البعثة أو قبلها

السّيرة أخصب حقل للمصلحين

كذلك أقرأ السّيرة. أي أنّها غير ملزمة للفرد الفذّ في محطّاتها الكبرى إلاّ فيما يغشاها من سنن جزئية. ولكنّها ملزمة للأمّة جمعاء قاطبة في منهجها العامّ من جهة وملزمة للمصلحين منها بصفة خاصّة. السّيرة هي أخصب حقل لإستنباط مناهج الإصلاح ومعايير التّغيير وأسس المعالجات الأدنى إلى الإسلام. وذلك بسبب أنّها تشتغل في الحقل العامّ بكلّ أبعاده

وبسبب أنّ صاحبها معصوم ﷺ. فهو لا يخطئ حتّى قبل البعثة إذ رعاه الله وإصطفاه وإصطنعه على عينه سبحانه. من أمثلة ذلك أنّ الهجرة ـ التي طرأت عليه وعلى أصحابه أكثر من مرّة ـ هي حقل إصلاحيّ تحريريّ تغييريّ يستنبط منه الأذكياء متى تكون الهجرة ـ وفي أيّ زمان أو مكان أو حال لفرد أو لجماعة ـ معالجة مناسبة. ومتى لا تكون كذلك. وقس على ذلك كلّ المحطّات الكبرى. السّيرة إذن في محطّاتها الكبرى ملزمة للأمة ولحركة الإصلاح فيها. عدا أنّ ذلك يحتاج إلى ملاءمة بين الواقع والغابر. إذ تتّحد الطّارئات في الأسباب والأبعاد أحيانا. ولكن تختلف في الأحجام والمقادير والآثار. ومن ذا فلا مناص من فقه تنزيليّ مناسب. السّيرة تكتنز أصول الإصلاح ومبادئ التّغيير ومقاصد المعالجات المختلفة. ولكنّها ليست ملزمة لكلّ مسلم أو مسلمة بصفته الفرديّة إلاّ فيما يغشاها من سنن جزئيّة كما أنف بيانه

الباب الثّاني

السّيرة بين القرآن الكريم وغيره من المصادر

مصادر السّيرة

المصدر الأوّل : القرآن الكريم

القرآن الكريم هو المرجع الأوّل لسيرة محمّد ﷺ وهو المصدر المعصوم الذي لا ريب فيه. فهو بذلك يتميّز عن كلّ ما دوّن سواء من سنّة أو سيرة. نقل إلينا القرآن الكريم من سيرة الأنبياء ما نقل. ولكنّ الذي نقله عن خاتمهم محمّد ﷺ أكثر وأكبر. أحصيت بنفسي من ذلك أزيد من ثلاثين موضعا. بعضها فيه توسّع. وبعضها منقبض. شأن القرآن الكريم في نظمه إنبساطا وإنقباضا بحسب السّياق والحاجة. إليك بعض الأمثلة :

في سورة البقرة نقل إلينا قصّة تبديل القبلة. كما نقل إلينا فيها ما أثاره بعضهم غمزا فيه ﷺ أنّه أقرّ أصحابه في سريّة حدث فيها إشتباك على إنتهاكم حرمة الشّهرالحرام. فكانت مناسبة لفصل القول في الشّهر الحرام. في حين أنّ أختها الزهراء الثّانية (آل عمران) تمحّضت في جانب كبير منها إلى عدوان أحد.

سورة الأنفال جاءت بالكلّية إحتضانا لعدوان بدر. وبمثل ذلك تقريبا تمحّضت سورة التّوبة لعسرة تبوك وفضح حركة النّفاق. بل إنّها في مفتتحها نقلت إلينا بعضا من سيرته في فتح مكّة معالجة للوجود المشرك. عالجت سورة الإسراء المكّية رحلة الإسراء في جانبها القيميّ وليس سردا. ومن ذلك سمّاها بعض الصّحابة سورة بني إسرائيل. وتمحّضت سورة النّور المدنيّة في جزء مهمّ منها لواقعة الإفك. وعالجت سورة الأحزاب واقعة الخندق بصفة كبيرة إضافة إلى أنّها من السّور التي عالجت حياته هو ﷺ في بعض الجوانب العائليّة من مثل مشكلة النّفقة على أزواجه والتّبنّي. كما عالجت بتعجّل واقعة بني قريظة. ثم جاءت الحجرات لتوقيره كما فعلت من قبلها سورة النّور في خواتيمها.

وعالجت سورة النّجم الشّوط الثّاني من رحلة الإسراء. أي المعراج. وجاءت سورة المجادلة لنقل مشهد من سيرته مع إمرأة تشكوه مظاهرة زوجها. وعادت سورة الحشر لمشاهد عدوانية من الجانب الإسرائيليّ وتحديدا بني النّضير. وعالجت سورة الممتحنة بعض المشاهد الممهّدة لفتح مكّة ومعالجة قضية المهاجرات. وعادت سورة المنافقون إلى قضيّة النّفاق بحسبانه تحدّ أعظم في تلك الأيّام. ونقلت لنا سورة الجمعة مشهدا يدع فيه بعض المصلّين نبيّهم يخطب من فوق منبره ملتحقين بسوق لقافلة أناخت قريبا منهم.

ونقلت إلينا سورة التّحريم مشهدا آخر من المشكلات العائليّة للبيت النّبويّ والمعالجة الأنسب لها. ونقلت إلينا سورة الجنّ ـ مع الأحقاف جزئيّا ـ مشهد حضور الجنّة وإستماعهم القرآن الكريم. ونقل إلينا القرآن الكريم منذ بدايات البعثة بعض أحواله وهو يتلقّى الوحي لأوّل مرّة أو

بعيد ذلك بقليل داعيا إلى تزميله أو تدثيره. كما تضمنّت بعض المشاهد عتابات له عليه السّلام من مثل ما إستهلّت به سورة عبس ومن قبلها سورة التّوبة إذ أذن للمنافقين بالقعود وسورة الأنفال إذ إختار العفو عن أسرى بدر قبل أن يثخن في الأرض وسورة الأحزاب في شأن التّبنّي وغير ذلك مما عوتب فيه ﷺ. وتتمحّض له سورة الضّحى بالكلّية حديثا عنه ﷺ وبمثل ذلك جزئيّا أختها سورة الشّرح في حين أكتنز الخير كلّه له والرّضوان في أقصر سورة أي سورة الكوثر وتبشيره بالنّصر في سورة النّصر وتبّ عدوّه في سورة المسد ومشاهد أخرى لا تحصى لكثرتها ولا تعدّ في شأنه مع المعرضين المستكبرين ممّن كان يؤذيه. من مثل ما ورد في سورة العلق أوّل ما نزل والتي دوّنت أوّل نزول الوحي الكريم. دون ذكر أزيد من عشرة مواضع من أسئلة النّاس له سواء كانوا مستهزئين أو مؤمنين ممّا سجّل في الكتاب العزيز : يسألك النّاس أو يسألونك أو غير ذلك من الصّيغ. ومشاهد أخرى عن الهجرة الكبرى من مكّة إلى المدينة سواء مدحا لفعل الهجرة أو للمهاجرين والمهاجرات أو إستنكارا ضدّ الخانعين تحت البطش القرشيّ ألاّ يتحرّروا وهم أهل لذلك. كما تمحّضت في جزء كبير منها سورة الفتح لصلح الحديبيّة ومشاهده المختلفة.

ونقلت إلينا سورة النّساء مشهد اليهوديّ المتّهم بالسّرقة زورا وكيف برّأه الله سبحانه من فوق سبع سماوات إحقاقا لقانون العدل وترسيخا لسنّة القسط بين النّاس. تلك أزيد من ثلاثين موضعا ممّا ثبت. ولم أتّبع ما لم يثبت وهو كثير.

نقل القرآن الكريم إذن إلينا من السّيرة مختلف الجوانب. إذ منها الجانب العائليّ الأسريّ الخاصّ وفيه لنا عبرة. ومنها الجانبّ العامّ معالجة لأكبر

التّحديّات في تلك الأيّام. من مثل التّكذيب بدافع الكبر والغرور أو النّفاق المزورّ إزورار الحيّة الخائنة أو نكوث أهل الكتاب لعهودهم ومرودهم على الغدر أو معالجات عسكرية دفاعا عن حقّ أهل المدينة كلّهم بغضّ النّظر عن دينهم وعنصرهم أو معالجات دينيّة من مثل تبديل القبلة أو قيميّة من مثل واقعة الإفك. هي إذن نقول غطّت جوانب كثيرة من سيرته عليه السّلام. والمقصد الأسنى منها هو إكتساب منهج في معالجة الطّارئات داخل المجتمع الإسلاميّ أو على حدوده هو الأولى والأنسب والأوفى للإسلام. كيف لا وصاحب المنهج هو المكلّف بالتّبيين وهو الأسوة التي بها يقتدى ويقتفى أثرها؟

المصدر الثّاني: السّنّة النبويّة

مرّ بنا ما يلزم علمه ـ سيما لطلبة العلم ـ تمييزا بين السّنة والسّيرة. إذ يشتركان في مساحة ويختلفان في أخرى. ولكن تظلّ السّنة ذاتها ـ في مظانّها المعروفة ـ مصدرا من مصادر السّيرة. إذ نقلت تلك الكتب ذاتها جوانب من السّيرة. بل إنّ بعضها توغّل في ذلك. إذ أنّ بعضها إختار له أصحابه التّدوين على الطّريقة الفقهية من مثل صحيحي البخاري ومسلم والموطّإ. وبعضها على الطّريقة السّندية. من مثل مسند الإمام أحمد. وبعضها إعتمد سياسة التّجميع ونقل ما يصل إلى صاحبه من مثل سنن البيهقيّ. وبعضها عكف على تدوين الشّمائل القيميّة والأخلاق النّبويّة من مثل كتاب الشّفاء في حقوق المصطفى للقاضي عياض. ومنهم من جمع بين كلّ تلك الأغراض في توسّع كبير من مثل أسفار (نضرة النّعيم) التي جاوزت عشرة أسفار. لك أن تحصي من كتب السّنة على إختلاف مناهج

تدويناتها ما يزيد عن عشرين سفرا. حظي بعضها بالقبول الواسع عند الأمّة غابرا وحاضرا. حتّى إنّ ما تواضع عليه البخاريّ ومسلم هو عندهم متّفق عليه. وألقاب أخرى من مثل : رواه الخمسة. أو على شروطهما أو غير ذلك. هي ثروة علميّة حديثيّة عظمى وللسّيرة بمعناها الخاصّ حضور مهمّ. حضور السّيرة في السّنة مهمّ بسبب أنّ السنّة ـ كما مرّ بنا ـ مسندة لا مرسلة وذلك يعني أنّ ما ورد فيها من السّيرة يغلب على الظنّ أنّه بعيد عن الوضع

المصدر الثّالث : كتب السّيرة ذاتها

هذا مصدر لا خلاف عليه. إذ تمحّض لتدوين السّيرة بمعناها الخاصّ رجال كثيرون في الغابر والحاضر. وهي بعشرات كثيرة. وربّما يكون أوّل ما وصلنا منها كتاب إبن إسحاق وإبن هشام الذي هذّب سلفه. كما تمحّض بعض المعاصرين لإخضاع السّيرة ذاتها لما أخضعت له السّنة. أي آلة الجرح والتّعديل الصّارمة. ونجح بعضهم في جزء من ذلك. وظهرت كتب تستبعد أن يكون هذا الأمر أو ذاك من السّيرة بخلاف ما درج عندنا أنّه منها. ومن ذلك كتاب (ما شاع ولم يثبت في السّيرة النّبوية لصاحبه: محمّد إبن عبد الله العوشن). كما إختلفت مناهج التّدوين في السّيرة ذاتها بمثل إختلافها في تدوين السّنة. إذ منها ما توخّى المنهج العمليّ. أي إستلال العبرة وإستنباط الدّرس المطلوب كما فعل الدّكتور البوطيّ والشّيخ السّباعيّ عليهما الرّحمة جميعا وغيرهما ومنها ما نهج منهج السّرد. وهذا هو الأغلب. كما أنّ منها ما حاول غشيان العبر المعاصرة فحام بعضها عليها حومانا كريما. ولكنّ أغلب الظنّ عندي أنّ الأمّة اليوم

بحاجة إلى مقاربة في هذا الإتّجاه أشدّ إنغراسا في نشدان العبر العظمى كليّة وجزئيّة ممّا نحتاجها نحن اليوم معالجة لهذا التّحدّي أو ذاك في هذا الحقل أو ذاك

المصدر الرّابع: كتب التّاريخ والأدب وما في حكمهما

المصدر الرّابع الأخير للسّيرة النّبويّة هي كتب التّاريخ. ذلك أنّ السّيرة هي جزء من التّاريخ في الحقيقة. سيما ممّا لم يثبته القرآن الكريم. أي ممّا يظلّ متردّدا بين الصحّة المطلقة ورودا ـ وهو ما إختصّ به الكتاب العزيز ـ وبين ما هو دون ذلك. من ذلك مثلا ما دوّنه إبن كثير في الغابر والمرحوم محمود شاكر في الحاضر. ومن ذا كانت السّيرة غير مسنودة. جرت عادة المؤرّخين المسلمين على تخصيص محور خاصّ بسيرة محمّد عليه السّلام سواء منهم من دوّن السّيرة البشريّة كلّها قدر ما يستطيع أو من دوّن منهم السّيرة الإسلاميّة فحسب. ومثل ذلك بعض كتب الأدب والتّراث في مختلف التخصّصات. إذ لا حديث عن أيّ علم أو معرفة أو كسب من كسوب المسلمين في القرون الخالية إلاّ بالعودة إلى السّنة أصالة بعد القرآن الكريم وإلى السّيرة من بعد ذلك

المصدر الخامس: مصدر عمليّ معنويّ للسّيرة

هناك مصدر أسمّيه مصدرا معنويّا عمليّا للسّيرة. وهو سيرة الخلافة الرّاشدة المهديّة الأولى. أي من أبي بكر حتى عليّ أو إبنه الحسن عليهم جميعا الرّضوان. المستند في ذلك الحديث الذي في سنده مقال. ولكنّ معناه صحيح. وهو الذي مرّ بنا آنفا (عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الرّاشدين

المهديين). ذلك أنّ تلك الحقبة هي خير من إقتفى أثر محمّد ﷺ بإحسان في الفقه. وبإحسان مثله في التّنزيل. صحيح أنّ تلك الحقبة ذاتها شابها الذي شابها في بعض فتراتها. سيما من بعد الشّيخين الأوليين. ولكنّ معالجاتها العامّة في الحقول العامّة سياسيّة وإقتصاديّة وإجتماعيّة وعسكريّة وأمنيّة وغير ذلك هي معالجات أدنى إلى الإسلام وأقرب إلى السّنة بكثير. يمكن أن أقول بلا مجازفة أنّها معصومة عصمة عامّة. أي أنّ معالجاتها العامّة في الحقول العامّة هي معالجات معصومة. ولكن من دون إغفال تأثيرات الزّمان والمكان والحال والعرف طبعا. فهذا مسلّم به. ذلك هو الذي أسمّيه المصدر المعنويّ العمليّ للسيّرة

خلاصة المحور الأوّل: أيّ مرجعيّة للسّيرة النّبويّة؟

قبل الخلوص إلى حصيلة هذا المحور لا مناص من تثبيت ملاحظة مجمع عليها من لدن النّاس المهتمّين. وهي أنّ أكثر تدوينات السّيرة في الغابر والحاضر تورّمت في جانبها العكسريّ الأمنيّ الجهاديّ الدّفاعيّ. في حين أنّها ضمرت كثيرا في نقل الجوانب الأخرى من حياته ﷺ. وإنّ عزو ذلك لغلبة حالة الحرب في تلك الأيّام ليس دقيقا. ذلك أنّ تلك الحالة مهما غلبت فإنّه لا يمكن أن تغطّي الجانب الأكبر من حياته ﷺ. أحصيت ذات مرّة بنفسي نسبة الحالة العسكرية والأمنيّة وما في حكمهما من سيرته فوجدت أنّ نسبة ذلك هي بمعدّل مرّة واحدة كلّ شهر ونصف. صحيح أنّ هذا القصور إستدركته بعض كتب أخرى قيّمة من مثل كتاب صاحب الشّفاء أي القاضي عياض ومن نحا نحوه بصفة عامّة رغم ندرة هذا الإتّجاه. ولكنّ الذي يخشى منه هو أنّ مناهج التّعليم والتّربية المعاصرة

عندما تقدّم المدوّنات المعروفة في السّيرة فحسب إلى النّاشئة وطلبة العلم من دون تطعيمات بمدوّنات أخرى في حقول أخرى فإنّ العاقبة لن تكون محمودة على ما يرام. ولعلّنا نلاحظ جميعا اليوم أنّ الإهتمام من الطّاقم الدّينيّ الرّسميّ والأهليّ في أغلبه ـ وليس كلّه طبعا ـ إنّما هو متّجه نحو السّيرة أكثر من إتّجاهه نحو السّنة. وهنا نجد أنفسنا أمام الخشية ذاتها. إذ أنّ السنّة للدّين والسّيرة للإصلاح. يمكن أن يعترض على هذا معترض بحجّة تبدو في ظاهرها ناهضة قويّة. قوامها أنّ القرآن الكريم ذاته نقل من السّيرة العسكريّة نقولات واسعة. أي زهاء تسع محطّات كبرى (بدر ـ أحد ـ بني النّضير ـ الخندق ـ بني قريظة ـ الحديبية ـ تبوك ـ الفتح). هذا صحيح ولكنّ الأصحّ منه هو أنّ القرآن الكريم نقل ذلك ليس سردا بل إقتناصا للعبرة وإستلالا للدّرس من جهة. ومن جهة أخرى فإنّه توسّع بمثل ذلك وأكثر منه في الجوانب القيميّة الأخلاقيّة للنّبيّ محمّد ﷺ (المشكلات العائليّة ومثلها التّبنّي وكيف عالجها ـ الإفك ـ مواضع العتاب ـ الهجرة ـ وغير ذلك ممّا توسّع فيه وهو يذكره بخير من مثل أنّه على خلق عظيم وأنّه رحمة للعالمين وأنّه رؤوف رحيم بالمؤمنين بل إنّه حتّى مع المنافقين أذن بالمعنى الإيجابيّ لا السّلبيّ الذي قصده المنافقون ومختلف المشاهد الأخرى التي تبيّن بشريّته وأصول رسالته من مثل أنّه ليس بجبّار ولا بمسيطر ولا بوكيل على النّاس ولا حفيظ عليهم ولا بقهّار). القرآن الكريم إذن عالج السّيرة معالجة شاملة جامعة لم يتورّم فيها جانب على آخر وذلك هو المنهج الأمثل الذي علينا توخّيه. صحيح أنّه يتعذّر لواحد أن يلمّ بكلّ ذلك. ولكنّ المطلوب هو أحد أمرين : إمّا إجتراح نظام تعليميّ تربويّ على أساس إستيعاب السّيرة كلّها في كلّ جوانبها قدر المستطاع

أو تعاون أهل الفكر والقلم على ملء الضّمورات في تدوينات السّيرة حتّى تكون صورة محمّد عليه السّلام وخاصّة لغير المسلمين الباحثين الدّارسين صورة جامعة وصحيحة.

لا بدّ كذلك من التّذكير بأنّ المساحتين (السّنة والسّيرة) تشتركان في جذر وتختلفان في بعض جذوعه. ومن ذا فإنّ الفصل بينهما سيما في النّظام التّربويّ التعليميّ هو فصل جائر. ولكن تظلّ السنّة مرجعا في التّديّن في مختلف حقوله في ضوء القرآن الكريم طبعا. وتظلّ السّيرة مرجعا أعظم وأكبر في منهاجية الإصلاح وبوصلة التّغيير في مختلف الحقول. مع مراعاة التّبدّلات الحاصلة بطبيعة الحال من جهة ورعاية المساحات المشتركة بين السّنة والسّيرة من جهة أخرى. كما مرّ بنا ذلك فيما أنف. بكلمة واحدة: السّيرة في مجموعها العامّ هي سنّة المصلحين ودليل المقاومين ونبراس المكافحين لأجل حياة طيّبة لعموم النّاس وخاصّة لأمّة الإسلام.

المحور الثّاني
فقه الأولويّات

الباب الأوّل

المعنى والحاجة

قال الإمام القرضاويّ في كتابه (فقه الأولويّات): فقه الأولويّات هو وضع كلّ شيء في مرتبته بالعدل من الأحكام والقيم والأعمال ثم يقدّم الأولى فالأولى بناء على معايير شرعيّة صحيحة يهدي إليها نور الوحي ونور العقل. فلا يقدّم غير المهمّ على المهمّ ولا المهمّ على الأهمّ ولا المرجوح على الرّاجح ولا المفضول على الفاضل أو الأفضل. بل يقدّم ما حقّه التّقديم ويؤخّر ما حقّه التّاخير. ولا يكبّر الصّغير ولا يهوّن الخطير. بل يوضع كلّ شيء في موضعه بالقسطاس المستقيم بلا طغيان ولا إخسار. ثم يقول مستطردا : وأساس هذا أنّ القيم والأحكام والأعمال والتّكاليف متفاوتة في نظر الشّرع تفاوتا بليغا. وليست كلّها في مرتبة واحدة. فمنها الكبير ومنها الصّغير ومنها الأصليّ ومنها الفرعيّ ومنها الأركان ومنها المكمّلات ومنها ما موضعه في الصّلب وما موضعه في الهامش وفيها الأعلى والأدنى والفاضل والمفضول. ثمّ ضرب الإمام في كتابه لذلك بعض الأمثلة من القرآن الكريم من مثل قوله سبحانه (أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله). ومن مثله قوله عليه السّلام : الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها

إماطة الأذى عن الطّريق. كما ضرب أمثلة لذلك من أسئلة الصّحابة لنبيّهم عليه السّلام. إذ كان بعضهم يسأله عن أحبّ العمل. ومن ذا قسّم العلماء المعاصي إلى أقسام منها الكبير ومنها الصّغير بناء على آية سورة النّساء ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾. ووردت صيغ التفضيل على وزن أفعل في القرآن الكريم وفي الحديث مرّات كثيرات. ممّا يدلّ على أنّ الأمور ليست متساوية أجرا و وزرا

لهذا الفقه منشأ حقيقيّ

تبدّل إسم هذا الفقه مرّات. إذ كان يسمّى في الغابر : فقه مراتب الأعمال. كما دوّن ذلك وكتب فيه إبن القيّم عليه الرّحمة. وأضحى اليوم يسمّى فقه الأولويّات. ولكن لا مشاحّة في المصطلح كما وقر في العقول السّليمة. ولكن لهذا الفقه منشأ حقيقيّ لا وهميّ. ذلك أنّه مولود من رحم الشّريعة ذاتها. وهي مختلفة المستويات التّشريعيّة. إذ منها الأمر البات الحاسم ومنها التّرغيب. ومنها النّهي المؤكّد ومنها التّرهيب. ومنها الإخبار وغير ذلك من مستوياتها. فضلا عن أنّ مستويات التّكليف ذاتها متغيّرة. إذ أنّ بعضها يتوجّه إلى أهل المال وبعضها إلى أهل السّلطان وبعضها إلى أهل العلم وهكذا. وبعضها لا يحتمل تأخيرا وبعضها يحتمل التّراخي. كما عبّر عن ذلك الفقهاء. بناء الشّريعة ذاتها إذن هو رحم نشأ منه فقه الأولويّات. كما ولد هذا الفقه من رحم إختلاف النّاس أنفسهم إذ منهم القويّ ومنهم الضّعيف. ومنهم المخيّر ومنهم المضطرّ. ومنهم الآمن ومنهم الخائف. ومنهم المتفرّغ ومنهم من إكتظّت حياته وإزدحمت بالتّكاليف والأثقال. ومنهم القدوة الذي لا مناص له من العزيمة لأنّ النّاس يقتفون أثره. من

مثل أبي بكر الذي غضب عليه عليه السّلام إذ دافع عن نفسه في حضرة رجل لا يضنّ عليه بالشّتيمة. ومنهم من يقبل عفوه من مثل بعض الأعراب الذين رضي منهم عليه السّلام ـ سيما عند السّؤال ـ بالأركان الإعتقاديّة العظمى وبإجمال لا تفصيل فيه وبمثلها تعبّديا وعمليا. فقه الأولويّات إذن له منشأ في الشّريعة وفي الطّبيعة البشريّة ذاتها. كما أنّ له منشأ في رحم الزمان والمكان. إذ قد يتوسّع الزّمان لقوم بسبب قوّة أو وجد وغنم فتكون عمارة الأرض في حقّهم واجبا موجوبا. وقد ينقبض الزّمان لآخرين بسبب ضعف أو فاقة. ومثل ذلك المكان نفسه. ومثلهما العدوّ والخصم ومن يزحم الأرض معك. كلّ ذلك يخبرك أنّ فقه الأولويّات منشؤه حقيقيّ لا وهميّ. أي طبيعة الشّريعة وطبيعة الإنسان وطبيعة الزّمان والمكان والحال والعرف وما هو مؤهّل للتّبدّلات والتحوّلات. ومن ذا فإنّ إزدحام كلّ ذلك وإكتظاظ حياة النّاس به داع إلى تقديم هذا وتأخير ذاك وتكبير هذا وتصغير الآخر

أيّ حاجة لفقه الأولوّيات؟

هي حاجة ملحّة لا مناص من تلبيتها. وهي حاجة الإنسان إلى الجمع بين دينه ودنياه في آن واحد. أي عندما تزدحم الحاجات وتكتظّ الحياة بالمطالب فإنّ الإنسان الذي لا يستطيع تلبية كلّ ذلك مطالب بإجتهاد فكريّ عقليّ على ضوء الشّريعة والواقع معا لأجل تفكيك تلك المطالب إبتغاء ترتيب وفق ترتيب الشّريعة لها. ومن بعد ذلك إعادة تركيبها لأجل إعادة ترتيبها وفق الحاجات والضّرورات والمصالح والمفاسد والمؤهّلات والإستطاعات. ذلك أمر تعرّض له الأنبياء أنفسهم عليهم السّلام. تعرّض إلى ذلك نبيّ الله

نوح عليه السّلام ـ وهو من أولي العزم ـ إذ إزدحم عليه مطلبان في الآن نفسه : مطلب طاعة ربّه سبحانه بالصّعود في السّفينة ومن معه من المؤمنين ومطلب غريزيّ آخر عاوده جبلّة في تلك اللّحظة الحرجة جدّا وهو مطلب إنجاء إبنه الذي هو من صلبه. مطلبان مشروعان كلاهما. وإذ عزّ نيل المطلب الثّاني أي إنضمام فلذة كبده إليه فإنّه قدّم المطلب الأوّل. أي اللّبث في السّفينة حتى يتمّ أمر الله سبحانه وأخّر المطلب الثّاني. إذ لم يكن ممكنا الجمع بينهما. لم يعاتبه ربّه سبحانه أنّه ذكر إبنه الكافر في تلك اللّحظة الحرجة جدّا. وكيف ينكر عليه ما أودعه هو بنفسه فيه. أي فطرته؟ ولكن عاتبه أنّه ظلّ مأسوفا عليه إذ أغرقه الموج وصار إلى ما صار إليه كلّ كافر في تلك اللّحظة. تعرّض إلى ذلك إبراهيم عليه السّلام. إذ لمّا رأى أنّ قومه وضعوا أيديهم في أفواههم إعراضا عجيبا فلا مجال للحوار معهم عمد إلى إيهامهم أنّه سقيم وما هو بسقيم وإختلف إلى بعض أصنامهم التي يعبدونها وفعل فيها ما يجعل قومه يثوبون إلى رشدهم ويسألون أنفسهم : أنّى لعبادة شيء لا يملك حتّى الدّفاع عن نفسه؟ إزدحم عنده المطلبان : مطلب مواصلة الحوار معهم بلسانه ومطلب تلقينهم درسا عمليّا قمينا بثوبتهم. لو كانوا يعقلون. قدّم هذا وأخّر ذاك. إذ لم يكن الجمع بينهما ممكنا. ولو عمد إلى ذلك بحضرتهم لما إستطاع أن يفعل ما فعل. الحاجة إذن إلى فقه الأولويّات ترتيبا لسلّم التّكاليف في الدّين والدّنيا معا هي حاجة ماسّة يتعرّض لها كلّ إنسان. حتّى الكافر الذي يعبد هواه أو أيّ شيء آخر لا مناص له من سلّم لفقه الأولويّات لترتيب أعماله ومصالحه ومفاسده. فقه الأولوّيات إذن هو فقه في الأصل عقليّ ذهنيّ فطريّ جبلّي في الإنسان. والدّليل على ذلك أنّ الكافر نفسه يلجأ إليه. ولكن جاءت به الشّريعة

للمؤمنين تذكيرا وترسيخا. إذ أنّها شريعة تستند على الفطرة كلّ الإستناد. فإذا كان فقه الأولويّات ذا أصل عقليّ فطريّ من جهة وأصل شرعيّ من جهة أخرى فإنّ الحاجة إليه لا تكون ماسّة فحسب بل هي حاجة حيويّة لا تستقيم حياة بدونها

الباب الثّاني

أمثلة عمليّة

الأصل القرآنيّ لفقه الأولويّات

سفينة المساكين

قال سبحانه في سورة الكهف المكّية ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾. هذا بيان من العبد الصّالح ـ الخضر ـ عليه السّلام لصاحبه موسى عليه السّلام في شأن السّفينة التي خرقها قبل قليل. كان هذا العبد الصّالح ـ وهو في مهمّة تعليميّة لرجل من كبار المصطفين ـ مخيّرا قبل قليل إذ ركب السّفينة بين أمرين : إمّا أن يدع السّفينة على حالها. ومآلها هو إغتصابها من لدن الملك الجائر وما يثمره ذلك من تعريض أولئك المساكين للجوع والحاجة ومن وراءهم من أهل وذريّة. وإمّا أن يفسد فيها قليلا حيلة مطلوبة عند فقهاء مراتب الأعمال. ومآلها هو نجاتها من بطش ذلك الملك الفاجر. وقد يكلّف ذلك الخرق أصحابها عطالة ليوم أو أكثر أو أجر إصلاح . ولكنّ الخيار الثّاني أقلّ كلفة عليهم حتما. إذ كلّما

خيّر إمرئ عاقل بين ذهاب ماله بالكلّية وبين ذهاب بعضه وبقاء بعضه فإنّه يخيّر هذا على ذاك. هكذا فطر الباري سبحانه عقول النّاس. وتلك هي سنّة محمّد ﷺ الذي أخبر عنه الصّحابة أنّه ما خيّر بين أمرين إلاّ أختار أيسرهما ما لم يكن إثما.

هذا مشهد من مشاهد فقه الأولويّات أو فقه مراتب الأعمال بالتّعبير القديم. شيّد هذا المشهد على أساس أنّ الحياة العامّة للنّاس ـ سواء مؤمنهم وكافرهم ـ لا مناص فيها من التّفريط في بعض الحقّ لنيل بعضه الآخر

الله نفسه سبحانه يولّي عباده ما يعلمه هو من خير

في السّورة ذاتها يخبرنا الله سبحانه أنّه أمر عبده الصّالح هذا نفسه بقتل غلام ما له من جريرة. وهو ما أثار غضب موسى عليه السّلام ـ وما من إمرئ يشهد هذا من دون أن يكون موصولا بالوحي والغيب إلاّ إمتلأ غضبا ـ ثم أخبرنا سبحانه أنّه فعل ذلك رحمة بالغلام وربّما بوالديه كذلك بل ربّما بغيرهما ممّا لا يمكن علمه. قال سبحانه في هذا الموضع ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾.

هذا مشهد جديد يعلّمنا فيه الله نفسه سبحانه أنّه هو نفسه يختار لعباده من الخير ما يعلمه هو ولا يعلمونه. ذلك يعني أنّ هذا الضّرب من الفقه ـ فقه الأولويّات أو مراتب الأعمال ـ يجري في عالم الغيب كذلك. عدا أنّه تقديسا للقدّوس سبحانه وتنزيها وتسبيحا وعرفانا لمطلق كماله وجلاله وجماله فإنّا لا ننسب إليه الفقه بمثل ما ننسبه لغيره سبحانه. ولكنّ المفيد من المشهد أنّه هو نفسه سبحانه يفعل لعباده ما يكون غير مفهوم في الدّنيا أو ما يثير حزنهم. ولكنّه في الحقّ الذي لا يعلمه سواه

سبحانه هو الأولى بهم. هذا دليل إضافيّ على أنّ الإختيار بين الأمور فعل محمود بل مطلوب

جدار اليتامى

وفي السّورة ذاتها يعلّمنا الله سبحانه من مشهد جدار اليتامى أنّ المفاضلة بين الأمور لأجل تقديم أدناها سوء وأقلّها ضررا هو المطلوب لأهل فقه الأولويّات. قال سبحانه في شأن هذا الجدار ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.كان هذا العبد الصّالح مرّة أخرى في رحلته التّعليميّة لرسول كليم من أولي العزم ـ عليهم السّلام جميعا ـ أمام خيارين : إمّا أن يدع الجدار على حاله المتهافتة. ومآله الإنقضاض وإنكشاف كنز اليتامى لأولئك القوم الذين يستأثرون به. كيف لا وهم قد ضنّوا على عابر سبيل بمدّ من طعام؟ وإمّا أن يبادر لإصلاحه حفظا لمال اليتامى أو إشتراط إصلاحه بطعام يسدّ جوعتهم مقايضة عادلة معروفة بين النّاس. قدّم هذا العبد الصّالح حفظ اليتامى وآثر الطّيّ جوعا وأخّر إنقضاض الجدار وإنكشاف الكنز وحرمان أصحابه منه سيما أنّهم يتامى لا سند لهم

أكثر إخوة يوسف عليه السّلام رشدا

قال سبحانه في سورة يوسف المكّية ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾. هذا القائل هو أحد إخوته ـ عليه السّلام ـ وقد كان مخيّرا بين أمرين لا ثالث لهما : إمّا

أن يواجه إخوته بالعقل والحكمة أو إسترحاما وإستعطافا حتّى يعودوا بيوسف إلى أبيهم سليما آمنا أو يقاومهم بالقوّة. هذا خيار محكوم عليه بالإخفاق مسبقا بسبب أنّه وحيد دونهم من جهة وأنّهم عزموا على قتله بعد أن فارت فيهم فورات الغيرة والحسد وبلغت كلّ مبالغها. وإمّا أن يبحث بينه وبين نفسه عن مصير آخر يحمي يوسف نفسه من القتل. إذ لا يعود المقتول إلى الدّنيا ويحمي القتلة أنفسهم عساهم يتوبون يوما. وكّل جريمة دون القتل مجبورة. إختار هذا الرّجل أدنى الضّررين فأشار عليهم بوضعه في الجبّ. كان أمامه خيار آخر وهو خيار الصّمت ولكنّه خيار صنو لخيار مقاومتهم بالقوّة أو بالحجّة. مشهد آخر من مشاهد الأولويّات والمراتب في القرآن الكريم

أمثلة من السّنة :

فقه الأفضليّات والخيريّات

كثيرا ما يرد في الحديث النّبويّ التّعبير عن عمل أفضل من غيره أو عن فعل خير من فعل آخر أو خلق أولى من خلق آخر. معنى ذلك هو أنّ الحديث يوازن بين أمرين كلاهما صالح وفاضل ومحبوب. ولكنّ أحدهما عند الله أفضل أو هو لصاحبه أكثر خيرا. ويمكن أن نقول إذن ـ إذ لا عبرة بالمصطلح ـ أنّ جانبا من الحديث قائم على فقه الأفضليّات. سمّها أفضليّات أو أولويّات أو مراتب أعمال إذ لا مشاحّة في اللّفظ

أولويّة العلم على العبادة

قال ﷺ (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم). وذلك بعد أن ذكر له ﷺ رجلان : أحدهما عابد والآخر عالم. أخرجه التّرمذيّ عن أبي أمامة

أولويّة النّفس على الغير

قال ﷺ (حجّ عن نفسك ثمّ حجّ عن شبرمة) وذلك بعد أن سمع ﷺ رجلا يقول : لبّيك عن شبرمة. فسأله عنه فأخبره أنّه أخوه أو قريبه. قال له : هل حججت عن نفسك؟ قال : لا. أخرجه أبو داوود وغيره عن إبن عبّاس

أولويّة طاعة الله على طاعة الدّولة

قال ﷺ (لو دخلوها ما خرجوا منها أبدا. إنّما الطّاعة في المعروف). وذلك لمّا أخبر أنّ أميرا له في سريّة أوقد نارا وأمر من معه بدخولها فأبوا. متّفق عليه عن عليّ عليه الرّضوان

أولويّة الحكم الديّاني على القضائيّ

قال ﷺ (إنّما أنا بشر وإنّكم تختصمون إليّ ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض فأقضي له على نحو ممّا أسمع. فمن قضيت له من حقّ أخيه شيئا فلا يأخذه فإنّما أقطع له قطعة من النّار. متّفق عليه عن أمّ سلمة

أولويّة العافية البدنيّة

رخّص ﷺ لعبد الرّحمان إبن عوف والزّبير في قميص من حرير من حكّة كانت بهما. متّفق عليه عن أنس إبن مالك

أمثلة من تجربة الصّحابة الكرام والتّاريخ

أولويّة حفظ وحدة الأمّة

أجمع الصّحابة الكرام بعد حوارات بقيادة أبي بكر على قتال مرتدّي اليمامة. وهم يعلمون أنّ عددا من الصّحابة الكرام قد يقتلون أو يؤسرون. إنّما فعلوا ذلك تقديما لوحدة الأمّة بسبب أنّ رفض أهل اليمامة مواصلة إعطاء الزّكاة للدّولة من بعد موته ﷺ هو بالتّعبير المعاصر شيء شبيه بالعصيان المدنيّ الذي قد يؤول إلى إنشقاق جزء من دار الإسلام. ومن جهة أخرى فإنّهم فعلوا ذلك حفظا لأموال النّاس من الذين يأخذون الزّكاة التي هي حقّ الدولة

أولويّة تحرّر الرّأي السّديد

إختار الفاروق عمر عليه الرّضوان أن يحبس عددا من فقهاء الصّحابة في المدينة لأجل يسر مشاورتهم في النّائبات الجديدة. بما يشبه مؤسّسة دستوريّة للشّورى بالتّعبير المعاصر. وذلك بالرّغم من أنّ حبسهم قد يفوّت عليهم مصالح أخرى. وهو حبس شبيه بفرض الإقامة الجبريّة في زماننا. وهو حبس في كلّ الأحوال يحدّ من الحرّيات

أولويّة الوحدة على الحرّية

هذه واقعة معروفة. وهي المسّماة بعام الجماعة أي 40 هجرية. إذ تنازل الحسن عليه الرّضوان لمعاوية من بعد أن بويع من الأمّة بالخلافة. ولا شكّ أنّ ذلك كان ثمرة محاورات وتشاورات مع أهل الرّأي الذين إنتهوا إلى أنّ وحدة الأمّة مهدّدة بالتحلّل فتقدّمت إجتهادا منهم على حقّ الأمّة في إختيار من يسوسها

أولويّة الفقه على النّافلة

تمثّل ذلك في مشاهد كثيرة من تجارب الفقهاء. إذ يقوم المذهب المالكيّ على كراهة صيام الأيّام السّتّة من شوال خوفا من أن يرقّ الفقه في النّاس فيعتقدوا بعد أحقاب أخرى قابلة أنّ صيامها جزء من رمضان. أو أنّه واجب. قدّم ذلك حفظا للعلم والفقه أن تختلط الفريضة بالنّافلة بالرّغم من أنّ أجر ذلك الصّيام كمن صام الدّهر كلّه

أولويّة الأسرة

كان ﷺ يعدّ الطّلاق ثلاثا في مجلس واحد أو بكلمة واحدة طلقة واحدة. فلمّا جاء الفاروق عمر عليه الرّضوان عدّ ذلك طلاقا بائنا باتّا. إجتهادا منه بمقام الدّولة لأجل حمل النّاس على إجلال قيمة الأسرة وعدم تعريضها بالغضب واللّغو إلى الإندثار. ولّما جاء إبن تيمية أفتى بما كان يسير عليه النّبيّ ﷺ معلّلا ذلك بالعلّة ذاتها. أي حفظ الأسرة. ولكن بوسيلة أخرى. توحّد المقصد منهم هنا جميعا. ولكن إختلفت الوسائل إليه بحسب التّقديرات والإجتهادات

أولويّة حفظ العلم والسنّة

إجترح السّلف الصّالح علم الجرح والتّعديل الذي به يكشفون ما بطن من حياة الرّواة وأعضاء سلاسل السّند ليخلعوا على هذا صفة الكذب وغير ذلك ممّا لا يجوز في العادة وما فعلوا ذلك سوى تقديما لأولويّة حفظ السّنة التي بحفظها يحفظ الدّين كلّه

أولويّة تحرير الأوطان

أفتى الإمام القرضاويّ منذ أزيد من عقدين بجواز العمليّات الإستشهادية في فلسطين المحتلّة وليس خارجها. وذلك في سابقة جديدة إجتهادا منه في تقديم حقّ التّحرير للوطن السّليب على حقّ الحياة لبعض النّاس المقاومين. سيما أنّ سلاح الإستشهاد سلاح ناجع وفعّال وأنّ المقاومة في حاجة إليه ماسّة

خلاصة لما ورد من أمثلة

الأمثلة لا تحصى لا من القرآن الكريم ولا من الحديث والسّيرة ومثل ذلك سيرة الخلافة الرّاشدة المهدية الأولى والتّاريخ الإسلاميّ. ولكن بالمثال يتّضح الحال. كما قالت العرب. إذ العبرة ليست في تدجيج الأمثلة وتجييشها. ولكنّ العبرة في حسن إستنباط الحكمة منها. العبرة العظمى من الأمثلة الواردة علاقة بموضوعنا هي أنّه في كلّ حال من تلك الحالات ومن غيرها تكون خيارات كثيرة ممكنة وبدائل مثلها. عدا أنّه في كلّ حالة تعالج من جديد يعرض علينا صاحب المثل نفسه البديل الأنسب والخيار الأولى. وذلك

هو معنى فقه الأولويّات. أي إنتقاء معالجة من معالجات كثيرة. وليس هو مطالبا بأن يذكر لنا كلّ تلك الإحتمالات والبدائل. لأنّ ذلك يجعل منها سفرا لا يحتمل من جهة. ويجعل عقولنا نحن مسطّحة عقيمة. وذلك هو جهدنا. أي تصوّر البدائل الأخرى التي أعرض عنها صاحب التّمثيل. ومن ذا نتفقّه في الأولويّة التي إختارها هو لنفيء إلى أنّ تلك الأولويّة هي ثمرة موازنات وترجيحات

المحور الثّالث
الواقع الأوربّيّ والتّطبيقات الممكنة فيه

الباب الأوّل

خصائص الواقع الأوروبّيّ علاقة مع الوجود المسلم

ليس الحديث هنا عن كلّ خصائص الواقع الأوروبّيّ. إذ أنّ ذلك يحتاج إلى سفر كامل. إنّما الحديث عن بعض تلك الخصائص في علاقة مباشرة مع الوجود الأوروبّيّ المسلم. ومن تلك الخصائص اللّصيقة ما يأتي ذكره

واقع علمانيّ بنكهة مسيحيّة فاقعة

من أكبر خصائص المجتمع الأوروبّيّ ما شكّلته الثّورة الأوروبّية السّالفة التي أفرزت نظاما علمانيّا يضع أوزار الحرب الدّينية الطّويلة المكلفة ويقرّ الإعتراف بالآخر. ويميّز بين فضاءين : فضاء خاصّ لا سلطان فيه على المرء عدا سلطان ضميره فهو فيه حرّ مطلقا (من مثل البيت والمعبد والنّادي وغير ذلك). وفضاء عامّ تسوسه الدّولة المنتخبة بدورها من الشّعب وفق عقد إجتماعيّ سياسيّ. معلوم أنّ العلمانية كانت في البداية هي الحلّ الأنسب والأقلّ كلفة والضّامن لتوسّع دائرة الحرّيات. صحيح أنّها لم تكن تستند إلى دين في الفضاء العامّ. ولكنّها كانت في تلك الأيّام الحلّ شبه

السّحريّ الذي جنّب أوروبا مزيدا من الدّماء المهراقة. لم يكن الأمر في تلك الأيّام متاحا ـ كما يهرف بعضنا ـ لتكون الأيلولة إلى أيّ دين. بله أن يكون ذلك الدّين هو الإسلام. كيف وما أهريقت الدّماء وملأت الأشلاء البشرية النّهاد والوجاد إلاّ من بعد ما عسعست نيران الحرب بين المذاهب ذاتها التي ينتظمها دين واحد في الأصل؟ ومن ذا فإنّ الحلّ العلمانيّ كان في تلك الأيام هو الحلّ العقلانيّ الطّبيعيّ. ولا وجود لحلّ سواه. عدا أنّ ذلك الحلّ ووجه بأمرين : أوّلهما هو أنّ السلطان الدينيّ الذي تمثّله الكنيسة التي خرجت من تلك الحرب منهكة ببطاقة حمراء قانية ظلّ يحاول التسلّل شيئا فشيئا إلى الدّولة والمجتمع.

ومن ذا يمكن القول أنّه عاد من النّافذة كما يقال. ومع الأيّام إكتسب مواقع قدم جديدة وإستعاد جزء كبيرا من قوّته وسلطانه ولا ينكر تأثيره على بعض السّياسات الأوروبّيّة. ثاني الأمرين ـ وهو الأخطر في التّحول العلمانيّ ـ هو أنّ تلك العلمانية التي تميّزت بالحياد الكامل بادئ الأمر حيال الدّين والشّأن الشخصيّ ما إن ظهر الإسلام هنا أو هناك حتّى ناصبته العداء بكلّ قوّة. وبذاك سجّلت تلك العلمانيّة أوّل إرتدادتها على نفسها. وهي اليوم تتخبّط في تلك الرّدة. إذ كلّما برز الإسلام ـ ولو عن بعد وبأيّ صورة ـ إنقلبت العلمانيّة على أصلها الأوّل.

ويمكن القول أنّها : تمسّحت أو تهوّدت أو تغرّبت أو تصلّبت. بمعنى أنّها إقترفت ما إقترفته المسيحيّة ذاتها لمّا جاءت من المشرق تريد هداية روميّة. فما تمسّحت روميّة ولكن تروّمت المسيحيّة. العلمانية الأوروبّية اليوم تمسّحت بالكامل أي خرجت عن حيادها الأوّليّ وتقمّصت الرّداء المسيحيّ بل الصّليبيّ الغربيّ المنهك فلسفيا وفكريا وثقافيا. وهي نهاية

مؤلمة لمشروع علمانيّ كبير كان يمكن ألاّ يقف عند حدود إنقاذ أوروبا من حروبها الدّينية فحسب. إنّما كان يمكن أن تكون به تجربة أو مشروعا يمتصّ الحروب الدّينية وينظّر للعيش السّلميّ المشترك.

ومن ذا يمكن القول أنّ النّظام الإجتماعيّ العامّ الذي يؤثّر بلونه على الحياة في أوروبا هو نظام علمانيّ ـ لم يعد محايدا حيال الدّين والحرّيات ـ إنّما بنكهة مسيحية يهودية صليبية غربية ثخينة وفاقعة. أي أنّه نظام مركزيّ يحتكر النّظام الحقوقيّ والفلسفة التّحرّرية ويحجبها عن غيره بقوّة العصا والمال والنّفوذ. ومن ذلك جاءت نظريّة – فوكوياما ـ أي : نهاية التّاريخ. ذلك هو أصدق تعبير عن الحالة الفلسفية العامّة لأوروبا. أي إعتقاد بأنّ التّاريخ إنتهى إلى الحضارة الأوروبيّة بعلمانية عوراء حولاء تطوف حول ذاتها في مركزيّة شنيعة وتقدّم نفسها إلها للنّاس في الشّرق والغرب منقذا من الضّلال.

والحديث عن مركز الغرب ومركز أوروبا : أي فرنسا شديدة اللاّئكيّة وما حولها شرقا وغربا من دول أوروبّية. سيما أنّ تأثير الولايات المتّحدة الأميريكيّة ليس بتلك الثّخونة والفقاعة بسبب الجغرافيا فحسب. الخلاصة من هذا هي أنّ الواقع الأوروبّيّ ـ سيما في السّنوات الأخيرة ـ تأثّر إلى حدّ مهمّ بالإمتداد اليمينيّ المتطرّف ممّا شكّل نتائج الإنتخابات في أكثر البلاد الأوروبّيّة. هذا واضح لا غبار عليه. ولكنّ ما ينقصنا هو معرفة الأسباب الحقيقيّة والعميقة لهذا التّمدّد. إذ أنّ عزو ذلك إلى ظهور التّطرّف الدّينيّ (العربيّ) فحسب ـ كما يقال في العادة ـ ليس دقيقا رغم صحّته

واقع متبرّج بعلومه ومعارفه وقوّته

ممّا ساعد على ما أنف ذكره ـ ومن بعد إنتصار الحلفاء خاصّة في الحرب العالميّة الثّانية ـ الثّورة العلميّة والمعرفيّة التي خاضتها أوروبا بنجاح كبير. صحيح أنّ أصول ذلك هي إسلامية بأثر من حروب الفرنجة أوّلا ثمّ بأثر من الوجود الإسلاميّ العريق في الأندلس التي عمّرها ثمانية قرون كاملة. وهو الأمر الذي وثّقه أكثر من مستشرق غربيّ منصف لعلّ الألمانية – سغريد هونكة بسفرها الفريد : شمس العرب تسطع على الغرب ـ علم من أعلام تلك الحركة. ولكنّ الحصيلة العلميّة المعرفيّة في أوروبا كبيرة وعظيمة. سيما في الإنتاج المدنيّ الحضاريّ ذي الطّابع المادّيّ. وهي التي تقود اليوم ثورة الإتّصالات المارجة. هذا الواقع جعل الأمّة الأوروبيّة متبرجة مستكبرة مستعلية إلى أبعد الحدود. وهو أمر طبيعيّ بسبب عدم الإستناد إلى ثقافة تعمرها القيم الإنسانيّة ولا الدّينية الصّحيحة. ورغم أنّ للوجود المسلم في هذه النّجاحات المعرفية والعلمية في كلّ التّخصّصات وجود معتبر بشهادة الأوروبيّين أنفسهم من أهل البيت المعرفيّ والعلميّ فإنّ الأخطبوط الإعلاميّ الذي يقود السّياسة والتّأثير يحجب ذلك ويطمره. الخطير في الأمر هنا هو أنّ عددا معتبرا من المسلمين مازال يظنّ أنّ سبب ذلك التّقدّم العلميّ سببه طرد الدّين بلسان المرحوم روجي قارودي

واقع نجح الإعلام في تكييف موقفه من الإسلام

الإعلام في أوروبا بصفة عامّة يسوق النّاس إلى ما يريد سوقا عجيبا. السّؤال هو : كيف ولماذا؟ السّبب في رأيي هو أنّ الإنسان الأوروبّيّ بصفة

عامّة (عدا نخبة صغيرة) ـ وبسبب الحدّ الأدنى من رغد العيش وتوفّر الحرّيات ـ هو إنسان محلّيّ. بل شديد الإهتمام المحلّيّ. وليس هو إنسان عالميّ دوليّ. إذ هو لا يهتمّ كثيرا بما يدور في العالم. وهذا له إرتباط وثيق بالفلسفة المادّية التي صنعت ذلك الإنسان. وهي ثقافة أمّها : نفسي نفسي. كما أنّ ما يفسّر ذلك هو حدّ أدنى من وثوق الإنسان الأوروبّيّ بمجتمع ودولته ومؤسّساته. ومنها إعلامه. إذ ليس هناك حركات إحتجاجية أو عصيانات تجعل من ذلك الإنسان يسأل عن دوافعها. كلّ هذا بطبيعة الحال بتنسيب شديد.

الحديث هنا عن الإنسان الأوروبّيّ الأوّل. أي إنسان العقود القريبة الماضية وخاصّة قبل أن تعصف بالأرض ثورات التّواصل الماردة. أي حيث لا وجود لإعلام آخر بديل يقتحم على ذلك الإنسان مخدعه أو يقضّ عليه مضجعه.

ويزداد الأمر سوء شديدا عندما يتعلّق الأمر بالإسلام وتشويه الإعلام الأوروبّيّ لكلّ ما يمتّ إلى الإسلام بأيّ صلة فإنّ الإنسان الأوروبّيّ في وضع مريح جدّا ليلتقط كلّ ذلك ويصدّقه. وممّا زاد الطّين بلّة عندما رأى بنفسه ـ وبواسطة إعلام كاذب مفتر ـ القتل والإرهاب بأيدي مسلمة في العقود الأخيرة والسّنوات الأخيرة. وربّما عاش هو نفسه مثل ذلك في محلّه القريب منه. كلّ تلك العوامل وغيرها جعلت من الإنسان الأوروبّيّ مسوقا من الإعلام الذي يستغل جهله بما يدور خارج أوروبا. إذ هو يجهل ـ بنسبة عالية جدا ـ حتّى لغات جيرانه في الحوض المتوسّط الجنوبيّ

واقع يئنّ تحت حيرات روحيّة وخوف دائم

من خصائص هذا الواقع كذلك عودات ملحوظة إلى التّديّن بمختلف وجوهه. ومنه الرّدّة إلى الإسلام. وهو الأمر الذي ليس لنا عنه تصوّر صحيح رغم أنّ ذلك ليس يسيرا. ذلك أنّه ليس من المستبعد أنّ آلافا مؤلّفة من الأوروبّيين ـ بل ربّما أكثر ـ يعتنقون الإسلام. ولكنّهم لا يعلنون ذلك. وسبب التّكتّم معروف. أمّا الإحصائيات الرّسمية فلا تكاد تقترب من الحقيقة لا من قريب ولا من بعيد. ولا شكّ أنّ تفسير ذلك لا يعني سوى أنّ جوعات روحية شديدة ومثلها ظمآت إلى إشباعات نفسية طالما تجوهلت و آن أوان إروائها. فلئن إختار كثيرون منهم الإنتحار فإنّ آخرين إختاروا الإسلام. وليس مستبعدا ـ تفسيرا إجتماعيا ـ أنّ بعض الذين إختاروا العنف والإرهاب منهم يئنّون تحت المطارق ذاتها. أي الجوعات الرّوحية التي لا يشبعها إلاّ الإيمان بالله واليوم الآخر. مظاهر التبرّم والشّكوى هنا عامّة لا تخطئها عين. ويستوي فيها الغنيّ مع من دونه غنى. بل إنّه كلّما إشتدّ الهجوم على الإسلام جاء الطّلب على الإسلام معرفة وعلما وبحثا

واقع يفرّ نحو التّهرّم فرارا

هذا معروف معلوم. ناهيك أنّ الإحصائيات الرّسمية تعلنه. بل إنّ العقلاء منهم يحذّرون منه ومنذ سنوات. حتّى لقي بعضهم الذي لقي في سبيل ذلك. نضوب الرّحم الأوروبّيّ على إختلاف بين مختلف بلدان أوروبا لا ريب فيك. ولا تختلف الإستقراءات أنّ السبب الكبير لذلك هو سوء إدارة الحرّيات الفرديّة والعامّة في إثر علمانية منفلتة من كلّ قيمة أخلاقية ومثل إنسانيّ

وخاصّة فيما تعلّق بالأسرة والمرأة. هذا حصاد كان منظورا. ما يهمّ هنا ليس التّشخيص الذي لا أظنّ أنّ حوله أيّ خلاف ـ لا واقعا ولا سببا ـ ولكنّ المهمّ الأكثر هو كيف يساهم الوجود الأوروبّيّ المسلم في تجفيف تلك المنابع التي تساهم في هذا النّزيف حدّا من تهرّم عمرانيّ كاسح لا تعالجه غير القيم. ولكن أنّى لخطاب القيم هنا على وجه التّحديد أن يجد له مكانا؟ هذا سؤال مهمّ عندي إلى أبعد الحدود. البهجة بأيلولة هذه المجتمعات التي فيها من مواطن الخير والقوّة ما فيها ليس خلقا إسلاميا. ومثل ذلك لزوم السّلبيّة حيالها. والحال أنّنا جزء لا يتجزّأ منها. يصيبنا ما يصيبهم عملا بحديث السّفينة الصّحيح عنه ﷺ.

واقع ممزّق إجتماعيّا وفقير قيميا

من خصائص هذا الواقع كذلك ـ وتبعا لبعض العناصر آنفة الذّكر ـ التّمزّق الإجتماعيّ بمعنى شبه إندثار لشجرة العائلة وإرتباطاتها تبعا لشبه إندثار للمؤسّسة الأولى. أي الأسرة. البديل هو أنانية مفرطة تسلّلت حتّى إلى بعض مظاهر حياتهم من مثل الإستنجاد بالكلاب إستعاضة بها عن النّسل. وغير ذلك. المهمّ من هذا هو أنّ الفقر القيميّ ربّما بلغ حدّه الأعلى. ومعلوم أنّ كلّ داء له دواء إلاّ داء الفقر القيميّ المدقع الذي يحيل الإنسان إلى سبع مفترس أو كائن حزين يئد نفسه مع كلّ فجر جديد قبل أن تحين ساعته. السّؤال هو : كيف نساهم في معالجة مثل هذه الحالات؟

الباب الثّاني
أمثلة من التّطبيقات الأوروبيّة

مقدّمة

هذا الباب الثّاني من المحور الثّالث الأخير في هذا الكرّاس هو مضغته الحيّة. ذلك أنّ ما أنف من ذكر لمختلف مواقع السّيرة النّبويّة الشّريفة لا خلاف عليه ورودا تقريبا أو في الأعمّ الأغلب. ولكنّ السّؤال هو : كيف نستثمر ذلك في إصلاح واقعنا؟ إذ لا خلاف عليه ـ كما أنف معنا أعلاه ـ أنّ المرجعيات الإسلاميّة (سيما القرآن الكريم والسنّة والسّيرة ـ على خلاف بينهما وتمييز ـ) إنّما وضعت للتّأسّي والإقتداء ولتكون نبراسا ونموذجا وهاديا. الإجتهاد إذن هو إجتهاد تنزيليّ من جهة أولى. أي كيف يتحمّل واقعنا هذا الأمر أو ذاك من السّيرة؟ أو هو لا يتحمّله أصلا؟ ومن هو الذي يحتلّ مقام المقتدي هنا والمتأسّي؟ وكيف ترعى فوارق الزّمان والمكان وغير ذلك؟ الأمر شبيه جدّا بتنزيل الأحكام الشّرعيّة على الواقع. أي أنّه لا مناص من حسن التّعامل مع مراحل الإستنباط والتّهذيب والتّحقيق. بل

إنّ المهمّة هنا ربّما هي أعسر بسبب أنّ الأحكام هنا عامّة. إذ هي منوطة بحياة أمّة بأسرها أو جزء منها من مثل جزئها الأوروبّيّ مثلا وما لذلك من إستثناءات لا مناص من رعايتها. ومن ذا فإنّ الإجتهاد هنا قد يتعرّض لمقاربات مختلفة. وهذا على كلّ حال مفهوم. ومن جهة أخرى فإنّ هذا الإجتهاد التّنزيليّ قبل إنفاذه فإنّه يحتاج إلى مراحل من التّوعية والتّعليم والحوار وبثّ الهدى. إذ أنّ العلم بالشّيء ـ تجربة ـ ليس كافيا للإلتزام به. ولا مناص من طرق كلّ منافذ التّفاعل في الإنسان من قلب وعقل وذوق وغير ذلك. الأمر هنا يختلف عن الحكم الشّرعيّ الفرديّ في الشّأن الدّينيّ المجرّد. ذلك أنّه غلبت على الأمّة بسبب دركات الإنحطاط ثمّ بسبب شغبات الإحتلال التّديّنات الفرديّة نبذا لمعالجة الشّأن العامّ إلاّ قليلا. كما أنّ العلاقة مع الآخر المختلف دينا في أوضاع ضعف وتشرذم وتدنّ في الوعي ومن موقع أقلّيّ تزيد الحاجة إلى تلك المراحل التّوعويّة التّعليميّة طويلة المدى. تلك هي بعض تحدّيات التّنزيل وإستثمار السّيرة في الإصلاح سيما في الواقع الأوروبّيّ بصفة خاصّة

منهج تحرير هذه الأمثلة من التّطبيقات

أحصيت من مواقع السّيرة النّبويّة كثيرا حتّى تبيّن لي أنّها مواقع عامّة. أي ذات محطّات كبرى. ولا أدلّ على خصوبتها وأنّها حقول ثرّة للإستثمار أنّ القرآن الكريم نفسه جعلها ذكرا يتلى حتّى يوم القيامة. ودعا إلى الإعتبار منها. إذ أنّ دعوته إلى ذلك في آخر سورة يوسف عليه السّلام لا تقصر على قصّة النّبوّة قبل محمّد ﷺ. بل إنّ قصّة محمّد ﷺ لهي أولى بذلك وأجدر. ومن ذا حرّر منها ـ كما أحصيت بنفسي ـ أزيد من ثلاثين موضعا

دون إعتبار ما لم يثبت وروده. وهو كذلك كثير. تلك المحطّات الكبرى ترسم لنا السّياسة العامّة للأمّة وأقلّياتها حيال نفسها وحيال الآخر. أيّا كان وضع الآخر. سواء محاربا مقاتلا أو صديقا نصوحا أو مصالحا أو ملتزما السّلم. كما أنّ هناك محطّات أخرى لا تكاد تحصى ولا تعدّ من سيرته ﷺ سواء في أرحام تلك المحطّات الكبرى أو مستقلّة. إذ تحمل قيما فكريّة ومثلا ثقافيّة كفيلة بإعادة تركيب العقل المسلم المعاصر وخاصّة في أبعاده الجماعيّة وبصفة أخصّ في تعامله مع الآخر المختلف أو زمن الطّارئات. وحالة الأقليّة طارئة من الطّارئات. كما إنبجست لي قراءتي في السّيرة عن محطّات أخرى تصلح لأن تكون نبراسا لهدي الأمّة أو أجزاء منها في الشّأن الداخليّ الذّاتيّ لها. ومن هذا الضّرب محطّات أخرى كثيرة كذلك. كما أنّ السّيرة تضمن لمستقرئها قيما في كلّ الحالات. سواء حالات الضّعف أو القوّة. أو الحكم أو المعارضة. أو الكثرة أو القلّة. أو الفقر أو الغنى. ولكم أبدع إبن القيّم الذي لم أقرأ أنّ غيره ساق هذه الملاحظة الذّكيّة. إذ قال أنّ الله سبحانه قلّب حياة نبيّه الأخير محمّد ﷺ على كلّ الحالات الممكن أن تغشى مسلما أو أمّة أو جماعة منها حتّى يوم القيامة. وما ذاك سوى لئلاّ يتذرّع متذرّع يوم القيامة أنّه لم يتّبع محمّدا ﷺ بسبب أنّ فراغا في سيرته ـ فضلا عن سنّته ـ في مثل تلك الحالة التي غشيت ذلك الإنسان أو تلك الجماعة. ومن ذا غاب المثال وذهبت الأسوة. كما رأيت أنّ بعض مواضع السّيرة يمكن أن تستمثر في الحقل الإجتماعيّ العام. وهو أوسع حقل ربّما. وأنّ بعضها في الحقل السّياسيّ. وبعضها الآخر في الحقل القيميّ نفسه مجرّدا ربّما وصالحا للتّربية والتّوعية والتّثقيف. ومن ذا حاولت ترتيب تلك المواضع بحسب حقولها التي تراءت لي رغم أنّ الحقول

متداخلة في الحقيقة. كما سيقف على ذلك القارئ بنفسه. وفي أثناء ذلك ـ وهو المطلوب من هذا الكرّاس بالأساس الأوّل ـ لا مناص من إستنباط معنى التّنزيل ومغزى الإستقراء محاولة لإصلاح واقعنا على ضوء السّيرة النّبويّة قدر الإمكان. وهنا قد تختلف الأنظار إستقراء للمحلّ الأوروبّي هل يسع هذا التّنزيل أم لا. هي حركة حوار لا مناص منها إذ قد سلّمنا بالأصل الآصل وهو أنّ السّيرة موضوعة لإستثمارها إصلاحيّا

أولويّات إجتماعيّة حيال أمّتنا الأوروبّية

لا مناص من معالجة هذه الأولويّات بالتّواضع على مسلّمة إبتدائيّة قوامها أنّ المسلم مزدوج الإنتماء بالضّرورة. فهو ينتمي إلى الأمّة الإسلاميّة الكبرى في مشارق الأرض ومغاربها على أساس الولاء العقديّ المعلوم من جهة كما ينتمي ـ وبالقيمة ذاتها طولا وعرضا ـ إلى الأمّة الأوروبّية ـ سيما إلى وطنه الأوروبّيّ المسمّى ـ على أساس الولاء الوطنيّ الإداريّ السّياسيّ. ليس هذا الأمر بدعا من القول أو الإعتقاد. إذ لنا فيه سيرة صحيحة. أقرّها ﷺ إقرارا صحيحا. وذلك عندما أقرّ أبا بصير ـ وقد أنشأ دويلة صغيرة في فراغ جغرافيّ ما ـ على إنتمائه العقديّ. إذ هو مسلم كغيره من المسلمين لا فرق بينه وبينهم ولاء عقديّا. كما أقرّه على إنتمائه السّياسيّ الإداريّ الوطنيّ لنفسه. أي لدويلته التي أنشأها في ذلك الفراغ الدّوليّ آنذاك. والتي كانت مع الأيّام بؤرة يفرّ إليها كلّ مكره مقهور من قريش ولكن لا تستقبله دولة محمّد ﷺ في المدينة بسبب عهد الحديبيّة. أبو بصير هنا مسلم عقيدة يوالي الله ورسوله محمّدا ﷺ دينا. ولكن لا ولاء له لدولة المدينة من النّاحية العسكريّة والإداريّة وغير ذلك. إذ أنّ ذلك يهدّد صلح

الحديبيّة ويعرّض الإسلام نفسه إلى ما لا يفيء إليه رسول الإسلام ﷺ. أي نقض العهود. معلوم دون ريب أنّ الولاء المزدوج إشكاليّة يتطلّب علاجها مواءمة بين طرفيها ـ أو أطرافها ـ كثيرا من الصّبر والحكمة والميزان. ولكنّ المقطوع به شرعا دون أيّ خلاف هو أنّ هذا الوضع جدّ في زمانه ﷺ ويجدّ من بعده حتّى يوم القيامة. ومن ذا فإنّ الإسلام يتفهّمه ويعالجه بشريعته المرنة المنفتحة. وليس يهجم عليه بعلاجات حمقاء طائشة أو بأخرى تكون على شاكلة من يأتي يوم القيامة وشقّه مائل بسبب عدم العدل بين ولاءاته وإنتماءاته. تلك هي ضريبة الإسلام. أي التّوازن. ولا يعني ذلك العصمة من الخطإ تنزيلا. ولكن يعني ذلك التعبّؤ به عقيدة وفقها وثقافة. لأنّ المرء محاسب يوم القيامة عمّا يحمل فؤاده من قيم قبل أن يحاسب عمّا كسبت يداه فعلا

الإعتراف بالنّظام الأوروبيّ القائم

مؤسّسات هذه الأولويّة في السّيرة

الدّعوة يحميها مشرك

معلوم في السّيرة المكّية بلا خلاف أنّه ﷺ قبل حماية عمّه المشرك ـ أبي طالب ـ له ولدعوته. يمكن أنّ يعترض على هذا أنّ الحماية من لدن عمّه المشرك كانت بدوافع عصبيّة. وأنّه كان يحمي إبن أخيه ـ وكان في العرف العربيّ يومها بمنزلة إبنه إذ هو يتيم ﷺ ـ. ومعنى ذلك هو أنّه لم يكن يحمي الدّعوة. ولكنّه كان يحمي رجلها. هذا صحيح دون ريب. ولكنّ هذا

التّلبّس بين حماية أبي طالب لإبن أخيه وبين حمايته لدعوة إبن أخيه لا يمكن فصله على أساس أنّ الرّجل كان يحمي إبن أخيه فحسب مجرّدا من دعوته وعفوا من دينه الجديد الذي يلقى معارضة واسعة عريضة من قريش قادة ونافذين ورعيّة. ألم يكن هذا المشرك طرفا في بعض المشاهد في تلك المفاوضات الجارية بين إبن أخيه وبين أسياد قريش؟ لم يكن أبو طالب يحمي الدّين الجديد ولا دعوته حبّا فيهما. ولكنّ حمايته لإبن أخيه لا تعني سوى حمايته لما يدعو إليه. ومن ذا فإنّ الفصل بينهما يدعم هذا الإفتراض : كانت الدّعوة تلقى حماية كاملة من لدن مشرك ولكن بدافع عصبيّ كما هو معلوم. ألم يكن ﷺ يعلم ذلك حقّ العلم؟ أليس هو الحصيف الرّشيد الذي يميّز بين حماية عمّه له صلة عصبيّة وبين مقتضى ذلك أي حمايته لدعوته؟ بلى.

الخلاصة من هذا هو أنّه ﷺ قبل بتلك الحماية. وهي حماية لئن كان منطلقها عصبيّا لا يرضاها الإسلام فإنّها توفّر له عليه السّلام مناخا من الأمن والأمان لتبليغ دعوته. وهو يعلم أنّ عمّه يلقى الذي يلقى في سبيل ذلك من نظرائه من سادة قريش. ذلك يعنيّ أنّ الإسلام ـ في كلّ زمان وفي كلّ مكان ـ لا يعمل على هدم نظام يلقى منه بعض الحماية. إنّما يستثمر تلك الحماية بغضّ النّظر عن مبعثها بشرط واحد هو عدم المساس بثوابت الدّين وأسّه العظمى. وهو الأمر الذي إلتزمه أبو طالب مع إبن أخيه. إذ أنّه لم يدعه ـ بله أن يكرهه ـ إلى أيّ تحريف في الإعتقاد بما يرضي قريشا أو يطامن من غلوائها. يمكن أن يقال هنا كذلك أنّه يعلم ﷺ أنّ خصومة قريش لعمّه لن تصل حدود القطيعة بسبب منزلته القبليّة منهم فهو من سادة بني هاشم وهؤلاء من الذّروة في قريش. وهو ما نسمّيه نحن

اليوم بالتّعبير المعاصر : توظيف عناصر الضّعف في المشهد الرّاهن لصالح ما يدعو إليه الدّاعي. إهتبل ﷺ لفرط ذكائه ذلك الضّعف المتمثّل في عدم وصول الخصومة في البيت القياديّ القرشيّ إلى حدّ القطيعة أو الإحتراب ووظّفه لصالح دعوته

بيعة العقبة الثّانية يعزّزها مشرك

معلوم كذلك بلا خلاف أنّه ﷺ عزّز نفسه في بيعة العقبة الثّانية بعمّه العبّاس وهو مشرك في تلك الأيّام بإتّفاق. ذلك يعني أنّه لم يقف عند حدّ الإعتراف بالنّظام الإجتماعيّ السّائد فحسب ولا عند حدّ الإصطلاح معه. إنّما تجاوز ذلك إذ بادر بتوظيف ذلك النّظام الإجتماعيّ بأسّه القبليّ المترسّخ لصالح دعوته وإستجلاب شروط نجاحها. الذي حمله هنا على تعزير جانبه بعمّه المشرك هو أنّه في عقد سياسيّ بإمتياز شديد مع طرف آخر ليس له معه ـ بعد رابط الدّين الجديد ـ أيّ رابط. كان يريد أن يستوثق الجانب الأنصاريّ. إذ كان يدرك حقّ الإدراك أنّ العامل العقديّ على مركزيّته الشّديدة فإنّه لا يكفى عنصرا وحيدا لإضفاء المشروعية كلّها على هذا العقد الذي يمكن أنّ ينقض من بعد ذلك من لدن عناصر يثربيّة أو عناصر قرشيّة بدعوى أنّه يرتقي إلى حدّ الخيانة العظمى. عامل الإعتقاد وحده في تلك الأيّام مازال غريبا. بل لا حضور له سوى عند هذه الثّلة الصّغيرة في الطّرفين : المكّي واليثربيّ. ومعلوم هنا كذلك أنّ تعزّره بعمّه المشرك ربّما تلبية لرغبة خفيّة في صدور الأنصار. هؤلاء أنفسهم يحتاجون إلى مثل هذا. وأيّا كان الأمر ـ سواء كان بمبادرة منه ﷺ فحسب أو كان برغبة خفيّة من لدن الطّرف الآخر في هذا العقد السّياسيّ الكبير ـ فإنّ المشهد ينبؤنا

بما لا ريب فيه أنّ من عناصر نجاح هذا العقد هو تعزّره من الجانب النّبويّ بظهير قويّ وبعنوان قبليّ عصبيّ. لم يكن هذا الأمر ملحّا في البيعة الأولى. وذلك بسبب أنّ الحلقة الأولى من بيعة الأنصار كانت حلقة دعوية عامّة. ككلّ حلقة دعوية. أمّا هنا فإنّ الأمر فيه تعاقد من الطّرفين على الحماية الأمنيّة الكاملة بمثل ما يحمى الأهل والذّريّة. أي أنّ الأمر عقد أمنيّ عسكريّ بالتّعبير المعاصر. وأنّ الأمر سيكون معقوبا في غضون مدّة قصيرة بتنفيذ مباشر وذلك عندما دخل هذا العقد حيّز التّنفيذ في أوّل يوم من أيام وصوله إلى المدينة ﷺ.

ومن مظاهر الإعتراف بالنّظام الإجتماعيّ القائم في تلك الأيّام ـ وحتّى في الدّائرة الإسلاميّة ذاتها وليس خارجها ـ فإنّه ﷺ ظلّ يعامل هذه الثّلة الإسلاميّة المؤسّسة للإسلام في المدينة على أساس إجتماعيّ. إذ جرى العقد بينهما على أساس أنّ يكون مزكّى من الأوس من جهة ومن الخزرج من جهة أخرى. وأنّ يكون ذلك ـ بسبب كثرة العدد خاصّة ـ من لدن نقباء من هؤلاء ونقباء من أولئك. ألا ترى أنّه حتّى في الدّائرة الإسلاميّة ذاتها ـ وهي على أعلى مستوى إيمانيّ ممكن في الدنيا ـ لا مناص من مراعاة النّظام الإجتماعيّ القائم؟ كلّ ذلك معناه أنّ الدّين الجديد لم يأت مطلقا لهدم الأنظمة الإجتماعيّة القائمة. إنّما جاء لإقرارها والإعتراف بها وتوظيفها لتكون في خدمة الولاء الأعظم والأنتماء الأكبر. أي الولاء للعقيدة الجديدة

صاحب الرّسالة يستجير بمشرك

كيف يستجير صاحب الرّسالة نفسه ﷺ بمشرك؟. أليس الله بكاف عبده؟ أليس الله هو من يجير ولا يجار عليه؟ ما أفسد تدّيننا المعاصر

عدا هذا الخلط الشّنيع بين مستويات التّشريع. وعدم التّمييز بين تشريع عقديّ محلّه الصّدور وهي من يستخدمه في حقوله المناسبة عندما يأني الأوان وبين تشريع عمليّ يراعي الزّمان والمكان والأنظمة القائمة عندما لا تجور على تلك الأسّ العقدية.

مرّ بنا أنّه ﷺ إستجار بعمّه المشرك لسنوات طويلات مستثمرا ذلك لتبليغ دعوته في حدود دنيا من الأمن. ولمّا عاد من الطّائف وقد خذلته ثقيف أيّما خذلان لا ينسجم مع أدب الشّهامة العربيّة على الأقلّ خاف على نفسه من أذى قريش التي يمكن لها هذه المرّة أن تخلع عليه تهمة التّخابر مع طرف أجنبيّ ـ وهي قبيلة ثقيف التي تنافس قريشا على السّيادة ـ فما كان منه ﷺ إلاّ أن طلب الإجارة من مشرك. هو مطعم إبن عدّي. مرّة أخرى يستثمر ﷺ النّظام الإجتماعيّ القائم لصالح دعوته. ولا يرى أيّ غضاضة في ذلك. إذ أنّ ما يدعو إليه يظلّ محفوظا محصّنا. هو يعلم ﷺ حقّ العلم أنّ النّظام الإجتماعيّ يقوم على قيمة الإجارة وأنّ رجالا معروفين يقومون بذلك بسبب نفوذهم وأنّ المجار لا يصله أذى. كائنا من كان. بل إنّه ـ ربّما ـ أراد لهذه القيمة العظمى في النّظام الإجتماعيّ أن يعاد إحياؤها في كلّ مناسبة ممكنة. لأنّها قيمة من قيم الإسلام. أو من القيم التي أقرّها الإسلام شأنها مع القيم التي لم يأت بها ولكنّه أقرّها فهي إذن قيمة من قيمه. وهي القيمة ذاتها التي تعلّق بها أحد المقبوض عليهم من أصحابه في إثر إنكشاف بيعة العقبة الثّانية فنجا من الموت بإذن الله سبحانه. ذلك يعني أنّه ﷺ يتبنّى القيم الطّيبة السّالفة في المجتمع. وأنّه يبحث دوما عن مشتركات مع ذلك النّظام ما لم يتعرّض الدّين في أسّه العليا وثوابته الكبرى إلى تحريف أو تزوير

دار أبي سفيان : رمز الإعتراف بالنّظام الإجتماعيّ

مشاهد الإعتراف بالنّظام الإجتماعيّ كثيرة. ومنها أنّه عليه السّلام بعث برسالة قويّة نافذة إلى قريش متمثّلة في أسيادها أساسا قوامها البحث عن مشتركات إجتماعيّة بين الوجودين اللّذين إحتضنتهما مكّة من أوّل يوم من فتحها : وجود مشرك معروف ووجود جديد هو الوجود الإسلاميّ بقيادته هو نفسه ﷺ. وذلك عندما قال لهم : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. أبو سفيان كان في تلك الأيّام من المسلمين في أحسن الأحوال. أي من الذين أسلموا تحت وقع الصّدمة وقوّة الدّولة الجديدة بدينها الجديد. كان من الطّلقاء الذين أراد أن يتألّف قلوبهم ﷺ. إختياره لأبي سفيان وهو من أكبر قادة قريش الذين ظلّوا يقودون الحروب ضدّه لسنوات طويلات هو رسالة سياسيّة وإجتماعيّة صحيحة وجليّة : أنّي أبحث معكم عن المشتركات وليس عن الخصومات وأنّي أعترف بالنّظام الإجتماعيّ الذي يعلي من شأن الكبراء وأنّي جئت متصالحا معكم وأنّي جئت برسالة توحيد للصّف العربيّ حتّى وهو متنوّع متعدّد دينا وأنّ العيش المشترك بيننا ممكن في ظلّ هذا الدّين الجديد.

وعندما يختار القائد المنتصر المظفّر رجلا هو في الذّروة القبليّة العصبيّة من جهة وأنّ سيفه هو نفسه مازال يقطر من دماء المقاومين دون حرّيتهم في إعتناق الدّين الجديد ويخلع على داره عنوان الأمن والأمان والسّلم والسّلام فإنّ ذلك يعني أنّ الإسلام يعترف بأيّ نظام إجتماعيّ سائد على أساس الإعتراف بالإرادة الإلهيّة القاضية بحقّ التّعدد وعلى أساس أنّ لكم دينكم ولي دين وأنّ رسالة ديني هي رسالة أمن بالأسّ الأوّل وليست رسالة إكراه

الإعتراف بالنّظام الدّينيّ نفسه

هنا تسيل ندوب بدمائها. ولا مناص من تبيين كاف. ذلك أنّه يمكن أن نقبل بأنّ الإسلام يعترف بالأنظمة الإجتماعيّة كما أنف ذكره. ولكن أنّى له أن يعترف بالأنظمة الدّينيّة وقد جاء مهيمنا علينا ناسخا لها عادّا إيّاها باطلة ضالّة كافرة؟ كيف وقد جاء نقيضا لها؟ قبل ترسيخ بعض الشّواهد من السّيرة النّبويّة الصّحيحة فإنه يجدر بنا أنّ نميّز بين الإعتراف والقبول من جهة وبين الشّرعيّة والمشروعية من جهة أخرى.

من يقرأ القرآن الكريم يدرك بيسر ـ بسبب كثرة طرقه لأهل الكتاب ـ أنّ الإسلام يعترف بأهل الكتاب وجودا قائما راسخا ثابتا فوق أرض الواقع لا جدال فيه من جهة وأنّه يدعوهم إلى الدّين الجديد بأسلوبه الدّعويّ المعروف من جهة أخرى. وأنّه يعتبر المعرضين منهم من بعد ذلك كافرين جملة وأهل كتاب بصفة خاصّة. حرمة لوضعهم السّالف وتأليفا لقلوبهم بذلك العنوان الطّيب من جهة ثالثة. وأنّه لا يقاتلهم أو يمحو أثرهم أو يضيّق عليهم بسبب إعراضهم عن الدّين الجديد أو كفرهم به حتى وقد تبيّن لهم الرّشد من الغيّ من جهة أخيرة. خلاصة سياسته معهم هي إذن كلمتان في حالة تكافل : إعتراف بالوجود من جهة. أي بالمشروعيّة الواقعيّة. ووصم بالبطلان والكفر والضّلال من جهة أخرى. أي بعدم الشّرعيّة الدّينيّة.

الإعتراف بالوجود يقتضي تواصل حركة الحوار معهم بدون أيّ إكراه أو تضييق. كما يقتضي إحترام خصوصيّاتهم الدّينيّة وغيرها ما ظلت ملازمة للسّلم والأمن وعدم النّشوز ضدّ النّظام الإجتماعيّ والسّياسيّ العامّ الذي يريد الإسلام إرساءه. هي سياسة مزدوجة إذن لا مناص فيها من تكامل

بين الأمرين معا. وأيّ إعتراض من المسلم على تلك السّياسة بجانبيها فهو عصيان ومذمّة

إعتراف جعفر بالنّظام المسيحيّ في الحبشة

هو في الحقيقة والأصل إعتراف منه هو نفسه ﷺ بذلك النّظام. إذ هو من ندب المسلمين في مكّة ـ وقد ضاقت بهم ـ إلى الهجرة إلى الحبشة. حيث الأمن والسّلم. ثمّ تزكّى هذ الإعتراف النّظريّ من أعلى هامات التّشريع في الإسلام أي النّبوّة بسلوك جعفر بإعتباره النّاطق الرّسميّ بإسم الوجود المسلم الأقلّيّ هناك. تمثل ذلك بصفّة عامّة في عدم قيام جعفر ومن معه حتّى بمجرّد الدّعوة العامّة إلى الإسلام بسبب وضعهم الخاصّ من جهة. وبسبب أنّ المجتمع كلّه مسيحيّ بالكامل من أعلى الهامة إلى إخمص القدم من جهة أخرى. كما تمثّل ذلك بصفة خاصّة في إعترافه بالهيئة القضائيّة المسيحيّة التي تولاّها ملك البلاد نفسه. أي النّجاشيّ. وذلك عندما إنعقدت تلك الهيئة للنّظر في طلب قريش تسليم أولئك المارقين عن القانون الدّوليّ. لم يقتصر دور جعفر على الإعتراف بالنّظام الإجتماعيّ والسّياسيّ العامّ. إنما تجاوز ذلك إلى الإعتراف بالنّظام القضائيّ الذي إحتكم إليه. ولم يكن يعلم علم اليقين إبتداء أنّه ينصفه. ولكن غلب على ظنّه ذلك بسبب حديث نبيّه عن ذلك النّظام قبل ذلك. كما تمثّل ذلك الإعتراف في المساندة الإسلاميّة المطلقة والكاملة لنظام النّجاشيّ ضدّ خصمه الذي نازعه الملك. وعندما ينخرط مؤمن ـ وليس بإسمه هو فحسب وإنما بإسم أقلّية إسلاميّة بأكملها ـ في مساندة نظام مسيحيّ ضدّ نظام مسيحيّ آخر بعلّة العدل فحسب فإنّه لك أن تقول بإطمئنان كبير أنّ الإسلام يعترف بالنّظام الدّينيّ

المخالف له إعتراف وجود وحقّ وجود وحقّ تصريف مآل ومصير. سيما أنّك فيه أقلّية من جهة وأنّ ذلك النّظام يلزم أعلى قيم دينك أنت. أي العدل والإنصاف والمساواة وغيرها من القيم العامّة التي تبثّ الأمن بين النّاس والأمان وترسي أسس السّلم والسّلام.

كلّ ذلك وجد تزكية منه هو نفسه عليه السّلام. ومن ذا هو إقرار نبويّ صحيح صريح. أي جزء من السنّة الملزمة لا يتجزّأ. هو إعتراف بنظام دينيّ مختلف. وليس هو خلع لعناوين الشّرعية الدّينيّة على ذلك النّظام الدّينيّ. الفرق بين الأمرين واسع شاسع لمن أعفى نفسه الخلط الشّنيع. جعفر هنا لم يقتصر على ذلك الإعتراف إنّما تجاوزه إلى البحث عن المشتركات بين دينه والنّصرانيّة. وأنّى له ألاّ يجد ذلك مبثوثا في القرآن الكريم بما به يمتّن من شأن تلك المشتركات ويليّن الله ـ مقلّب القلوب سبحانه ـ قلب زعيم الطّائفة النّصرانيّة نفسه إلى الإسلام فكان ذلك سببا في إسلامه. وقد ثبت أنّه ﷺ صلّى عليه صلاة الغائب إعترافا بمكانته. تمثّلت تلك المشتركات في قراءة جعفر لما تيسّر له من سورة مريم البتول عليها السّلام. وهو قمّة الذّكاء والحصافة والرّشد.

رسالته إلى تلك الدّولة هي رسالة إصطلاح معها ومع نظمها القضائيّة والإداريّة وحتّى الدّينيّة على أساس الإعتراف بالمشروعية. ولا يعني ذلك الإعتراف بالشّرعيّة الدّينيّة. بل إنّه لم يكن مناسبا البتّة أن يعلن بمناسبة وغير مناسبة عدم الإعتراف بالشّرعيّة الدّينيّة. ألم تقل العرب في حكمها الثّمينة : ما كلّ ما يعلم يقال ولكلّ مقام مقال؟

إعتراف بالنّظام الدّينيّ في المدينة

معلوم بدون أيّ ريب أنّه عليه السّلام جمع أهل المدينة كلّهم وبدون أيّ إستثناء لأحد على وثيقة سياسيّة مكتوبة وموقّعة من ممثّلي كلّ الطّوائف ومنها الطّوائف الإسرائيليّة التي ذكرتها الوثيقة بطنا بطنا (إبن عوف مثلا الذين تردّد ذكرهم فيها مرّات). كان يمكنه ﷺ ـ سيما أنّ وضعه غير وضع عمّه جعفر في الحبشة ـ أن يؤسّس دولة في المدينة تلمّ شتات المهاجرين والأنصار فحسب. أي تقصر دورها على المسلمين. هذا خيار ممكن بدون أيّ منازع. بل كان يمكنه أن يدع النّاس يصرّفون حياتهم وفق ما إتّفق لهم. فإذا برزت شاغبة من هنا أو هناك عالجها من دون الحاجة إلى جمعهم على دستور سياسيّ موحّد بل ومكتوب موثّق وموقّع عليه منهم جميعا بكلّ حرّية ومن دون أيّ إكراه. ولكنّه ـ ﷺ ـ عندما إختار الذي ذهب إليه ـ وهو عمل لا يصنّف بمعيارنا المعاصر إلاّ أنّه عمل سياسيّ بإمتياز شديد ـ فإنّما أراد أن يبعث برسالة سياسيّة قويّة وواضحة إلى أكبر الوجودات الإجتماعيّة والإقتصاديّة في المدينة ـ أي الوجود الإسرائيليّ متعدّد البطون ـ قوامها أنّ الدّين الجديد يعترف بأيّ وجود سابق له سواء من النّاحية الإجتماعيّة أو الماليّة أو حتّى الدّينيّة. على معنى أنّه لا يكره أحدا على إعتناقه. ولا يضيّق عليه في سبيل ذلك. ولا يحرمه من إقامة ولايات داخلية تصرّف ذلك الشّأن الدّينيّ نفسه وما عداه من الشّؤون على ما يرضاه أهلها ما إلتزمنا جميعا ـ بمن فيهم المسلمون أنفسهم ـ ببثّ الأمن والسّلم داخليا ورعاية الحرمة الدّينيّة لكلّ واحد منّا والإلتزام بالدّفاع عن الوضع الجديد منّا جميعا ضدّ أيّ عدوّ خارجيّ أيّا كان مأتاه ومشربه وأنّ العيش بيننا في هذه الرّقعة من الأرض إنّما يسير

وفق قيمة المواطنة المتساوية بيننا جميعا. تلك هي أبرز قيم ذلك الدّستور العظيم. أليس ذلك يعني أنّه عليه السّلام إعترف بالنّظام الإجتماعيّ العامّ لأهل المدنية وبنظامهم الدّينيّ نفسه حتّى وهو يعدّه كتابيّا وليس له أيّ شرعيّة دينيّة من بعد بعثة محمّد عليه السّلام وبنظامهم الماليّ كذلك إذ لم يستول على أموالهم أو يصادرها أو يستأثر منها جزء له؟

وعندما تحتوي الوثيقة السّياسيّة ـ التي أقرّها هو بنفسه بمثل ما أقرّها أعضاء ذلك الإئتلاف السّياسيّ الواسع وشديد التّعدّد ـ على ذكر البطون الإسرائيليّة بطنا بطنا وتعدّهم مواطنين كاملي الحقوق والواجبات سواء في رعاية الأمن الدّاخليّ أو حماية الأمن الخارجيّ فإنّ ذلك لا يعني سوى أنّ الإسلام يعترف بأيّ واقع سابق عنه حتّى لو كان ذلك الواقع مختلفا معه في الشّان الدّينيّ إختلافا عقديا لا مجال فيه لأيّ لقاء. وأنّ الإسلام يبحث مع النّاس المختلفين عنه عن المشتركات وليس عن الخصومات وما يسيل لعاب الإحتراب والتّنافي. وأنّ الإسلام يبحث عن وحدة النّاس حتّى وهم مختلفون عنه توعية لأتباعه بالآثار شديدة السّوء المترتّبة عن الفرقة. وأنّ كلّ تلك السّياسة إنّما يوظّفها الإسلام لبثّ الأمن داخليا وخارجيا معا

إعتراف بحقّ المشرك في مفتاح الكعبة الشّريفة

معلوم أنّه ﷺ لمّا دخل مكّة فاتحا منتصرا بفضل الله سبحانه طلب من سادن الكعبة في تلك الأيّام (عثمان بن طلحة) أن يناوله مفتاحها ليصلّي فيها. فلمّا أنهى صلاته أعاد المفتاح لذلك السّادن نفسه وهو مشرك محتفظ بدين آبائه. الذي يحترم نفسه ويكون معها صادقا من دون أيّ ذرّة كبر فإنّه لا يملك إلاّ أن يقف مشدوها في حضرة هذا المشهد. وعندما

تعمل آليّة المقارنة ـ وهي آلية عقليّة صحيحة ومفيدة ـ فإنّك تزداد إنبهارا بهذا النّبيّ الكريم الذي لا يشبه أيّ فاتح في الأرض مذ أهبط إليها آدم عليه السّلام حتّى يوم القيامة.

هذا النّبيّ لم يقتصر على إعلان العفو النّبويّ العام على كلّ أهل مكّة ولا على الإعتراف بنظامهم ما لزموا معه ومع النّاس الأمن والسّلم ولا على إجارة المستجير منهم خوفا على نفسه ومحتفظا في الآن نفسه بدين أجداده بمثل ما فعلت أمّ هانئ مع مشرك أو مشركين. لم يقتصر على كلّ ذلك إنّما تجاوزه ليعترف لقريش بأحقّيتها بمفتاح الكعبة التي حرّرها الله سبحانه للتّوّ من وثنيات المشركين وضلالاتهم. أنّى له ﷺ بذلك. أنّى له بردّ مفتاح الكعبة التي فتحها الله له إلى مشرك؟ عجب عجاب. أليس ذلك هو الإعتراف الأكبر لقريش بفضلهم على هذه الكعبة من حيث أنّها كعبة وبناء؟ أليس هم الذين عمدوا إلى إعادة بنائها من بعد أن جرفت السّيول منها الذي جرفت؟ ألم يكن هو نفسه ﷺ في يمّ المشهد ذاته إذ حقن دماءهم كما أنف معنا في هذا الكرّاس؟ لا أجد تفسيرا آخر يجعله عليه السّلام يعيد مفتاح الكعبة ـ التي هي رمز الدّين ـ إلى مشرك وقد فتحها الله عليه فتحا مبينا ونصرا معزّرا. لا أجد تفسيرا عدا أنّه يعترف لقريش بحقّها في الإحتفاظ بمفتاح بيت ظلّوا عليه حادبين حتّى وهم يغشونه بوثنيات وصنميات وخرافات وأساطير ينسبونها لإبراهيم عليه السّلام وما هي منه ولا هو منها. أدرك حقّ الإدراك أنّ هذا الأمر دون غيره لا يلقى ترحيبا من أكثر المسلمين اليوم.

أعرف حقّ المعرفة أنّه أمر محرج إلى حدّ بعيد. مجرّد القول بإعترافه عليه السّلام بالنّظام الدّينيّ لأيّ أهل ملّة لا يلقى ترحيبا. فما بالك إذا

قلت أنّه فعل ذلك عليه السّلام في رسالة سياسيّة عظمى ـ أحسن كثيرون منهم إلتقاطها ـ قوامها أنّ الإسلام دين يجمع النّاس وهم مختلفون في الدّين كلّ الإختلاف. وأنّ الأساس بين النّاس هو السّلم والأمن وليس وحدة الدّين. أعرف أنّ القول بأنّه عليه السّلام إعترف لقريش بفضلها على الكعبة بالذّات لا يلقى أيّ ترحيب. أعرف أنّ القول بأنّ قريشا كانت تحبّ الكعبة حبّا حقيقيا من حيث أنّه حبّ. ولكنّها كبرا منها تغشى الكعبة التي تحبّها بخرافات وأساطير لا أصل لها. نحن نريد أن ننفي ذلك الحبّ أصلا. قد تختلف الأنظار هنا وهذا معروف. لا أجد تفسيرا آخر من هذا المشهد عدا أنّه ـ ومن بعد الرّسالة السّياسيّة التي لا أظنّنا مختلفين فيها ـ يعترف لقريش بحقّها وفضلها السّابق في خدمة الكعبة. وهو أمر لا يقوم مبرّرا أبدا لشركهم. ولكنّ الفصل بين الأمور تمييزا صحيحا ودقيقا أظنّه عقلا وليس طيشا. هذا مشهد آخر يعترف فيه ﷺ بالنّظام الدّينيّ نفسه. إعترافا بمشروعية وليس إعترافا بشرعيّة دينيّة. كما مرّ بنا آنفا مرّات أن تتداخل القيم

حوار مع عدّي بن حاتم

دأب ﷺ على الحوار مع الآخر المختلف عنه دينا. من ذلك أنّه قبل الحوار مع سادة قريش في مكّة إذ طلبوا منه أن يكفّ عن آلهتهم ودينهم. وكان ذلك في أكثر من جولة بواسطة عمّه أبي طالب الذي يكفله ويحميه ويكفل دعوته بسبب ذلك بالضّرورة والإقتضاء وليس رضى أو حبّا. ولكنّها الأشياء والأمور عندما تأبى الإنفصال ليقضي ربّك سبحانه أمرا كان مفعولا. ثبت أنّه تحاور مع المشركين في مكّة حوارا دينيّا أصيلا. ولكنّه رفض مطلبهم. إذ

كان لا يسعه إلاّ رفضه. فهو يأتي على الإعتقاد الذي به بعث عليه السّلام. قبل الحوار معهم إذن دون ريب من حيث المبدأ. كما ثبت في السّيرة أنّه حاور أحد رجال الدّين النّصارى البارزين في تلك الأيّام. وهو عدّي بن حاتم الطّائيّ. وكان الحوار في بيته ﷺ إذ أحسن وفادة ضيفه وأكرم رفادته وذكرّه في حواره الطّويل معه أنّه ـ ومن معه من رجال الدّين ـ يأخذون المرباع ـ أي ربع الثّروة ـ وهو لا يحقّ لهم في دينهم هم أنفسهم. ذلك يعني أمورا. منها أنّه ﷺ على علم واسع وإطلاع أوسع بالدّين القديم نظريّة ـ وهو أمر لم ترد تفاصيله في الكتاب العزيز الذي أنزل عليه ﷺ ـ كما أنّه على إطّلاع بتنزيلات رجال الدّين له و تطبيقاتهم. وأنّه توسّل إلى هذا الرّجل بشيء من داخل دينه هو. إذ نبّهه أنّه يتوسّل الجور في معاملة النّاس في دينه. إذ يأخذ منهم من أموالهم ما لا يجوز له في دينه هو ودينهم هم. أليس هذا الطّريق علينا نحن اليوم غريبا؟ من منّا يعرف تفاصيل الدّين الآخر سواء كان سماويّا أو أرضيّا؟ ومن منّا يعرف مختلف التّطبيقات؟ بل من منّا يعمد إلى حوار معهم من داخل دينهم هم ومن داخل تطبيقاتهم هم؟ نحن نعمد إلى شطب كلّ ذلك شطبا عجيبا ونهجم عليهم بالدّعوة إلى الإسلام بدون مقدّمات ولسان الحال والمقال معا يلهجان بأنّكم على باطل وأنّ الحقّ هنا. هذا صحيح عقيدة. ولكنّ التّنزيل شيء آخر.

التّنزيل الذي يرضى عنه الله سبحانه هو هذ التّنزيل الذي توسّل به عليه السّلام لهذا الرّجل. المقصود من ذلك أن يبيّن له أنّ الدّين نفسه قائم على جور فإن لم يكن فإنّ تطبيقه قائم على جور مثله أو أشدّ منه. معنى ذلك أنّه يخاطب عقله وقلبه معا. وأنّه يتوسّل إليه بالحسنى ويستدرجه إستدراجا جميلا لعلّه يفيء به إلى مشترك مهمّ جدا في الحوار وهو مشترك

العدل. مشهد آخر يبيّن أنّه عليه السّلام يعترف بالدّين الآخر إعتراف وجود واقعيّ صحيح وليس محلّ وهم وإعتراف مشروعيّة وحقّ في الوجود والحياة حتّى وهو يشطب عنه الشّرعيّة الدّينيّة من بعد بعثته هو نفسه عليه السّلام. لو لم يكن يعترف به أصلا وبالكلّية فلم يحاوره ولم يضيفه ولم يتحدّث معه على تفاصيل دينه وهو باطل من أسّه؟ ذلك هو الأدب مع أهل الكتاب بصفة خاصّة فإذا إستووا عندنا مع غيرهم فأيّ معنى لهذا العنوان الذي كرّمهم به الله نفسه سبحانه عشرات المرّات في الكتاب العزيز؟

حوارات مطوّلة في مسجده مع مشركين ونصارى

معلوم في السّيرة أنّه ﷺ وفدت عليه بالمدينة في إثر فتح مكّة وتخضيد شوكة ثقيف بالطّائف وفود عربيّة كثيرة أشارت إليها سورة الحجرات المدنيّة إبتغاء إعلان الإيمان الحقّ من بعضها وإبتغاء إعلان الإستسلام والطّاعة للدّولة الجديدة وطيدة الأركان من بعضها الآخر. وهو ما سمّي بعام الوفود. من ذلك وفود قبيلة نجران العربيّة الكبرى التي كانت قد تنصّرت بالكامل تقريبا وقد جاء الوفد رفيع المستوى دلالة على الإهتمام. ومعها في الآن نفسه وفد من المشركين. إستقبل عليه السّلام الوفود ـ سيما ثقيلة العدد ـ في مسجده وإحتضنها ووفّر لها لأيّام المؤنة والرّعاية والتّأمين فهم ضيوفه المبجّلين. إستقبل في مسجده وفودا من النّصارى الذين جاؤوا يحاورونه في الدّين من مثل قبيلة نجران النّصرانية والتي نزل فيها وفي محاورتها معه ﷺ الآيات الكثيرة الأولى من سورة آل عمران ـ الزّهراء الثّانية ـ عكف وفد هذه القبيلة في المقام الأوّل على محاورته

حوارا دينيّا وكان الوحي يتنزّل. قبل بذلك ﷺ وهو المنتصر الفاتح الذي تأتيه الوفود وليس هو من يأتيها كما كان قبل ذلك في مكّة قبل الهجرة. قبل بذل الحوار الدّينيّ على أساس أنّ الإعتقاديات العظمى الكبرى المتعلّقة بالغيب لا تنازل عنها. ولكنّ عدم التّنازل عنها لا يعني عدم الإستماع إلى رأي الآخرين فيها. بل كان كلّ ذلك يجري في مسجده هو ﷺ. وكان يؤمّن لضيوفه كلّ ما يحتاجه الضّيف المبجّل بغضّ النّظر عمّا جاء لأجله إلاّ أن تكون خيانة. وليست هي صورة الحال طبعا.

ولما قضى الوفد النّصرانيّ وطره وإستمع إلى النّظر الإسلاميّ من النّبيّ نفسه ﷺ قفل راجعا آمنا لا يخاف شيئا. لم يقم على إكراههم حتّى باستخدام سلطان المضيّف. إنّما قام على عرض الإعتقاديات عليهم كما ترد عليه هو نفسه ﷺ من ربّه. موقف نجران مفهوم إذ هو موقف كلّ القبائل النّافذة عندما جاء الإسلام. هو موقف عصبة تقود قبيلة كبيرة نافذة ولها منافع ومصالح وعائدات. بعضها مادّيّ وبعضها معنويّ. وأيّا كان الموقف الصّحيح من الدّين الجديد فإنّ الأيلولة إليه كبيرة إلاّ على من هدى اللّه سبحانه. وثمن ذلك هو قيمة واحدة عنوانها : الإذعان للحقّ تواضعا وإيثار الله والدّار الآخرة. ذلك هو الإمتحان الذي أخفقت فيه قريش مثلا ومثلها بنو إسرائيل.

وجرى الأمر في المسجد نفسه مع وفد من المشركين في المدّة ذاتها. ولكنّ المسجد كان يمتلأ من حين لآخر بوفد جديد أو بوفود جديدة في ذلك العام. فما ضاق بذلك ذرعا ﷺ. وكيف يضيق ذرعا والنّاس الذين ظلّ يدعوهم سنوات طويلات هم اليوم يأتون إليه يستمعون؟ الحوار إذن مع المخالف أيّا كان دينه ـ أو حتّى لا دينه ـ مطلوب الإسلام. ولا يضيق به ذرعا. بل

هو يطلبه ولو بإنفاق المال. ولكن على أساس الإستماع للآخر كلّ الإستماع والتّقدير كلّ التّقدير وعرض الإعتقاديات ـ أو محلّ الحوار أيّا كان ـ بكلّ بلاغة وحكمة. فإذا وجد المحاور المسلم موضعا للإلتقاء مع الآخر لم يتردّد وإن لم يجد صرف أو إنصرف بكلّ أدب ودماثة خلق. فلا إعدام للحوار مطلقا مهما كان موضوعه. ولكن المسلم كفيل بعلم ما يمكن فيه الإشتراك وما لا يمكن فيه أيّ إشتراك

أولويّات إنسانيّة

كما أنف ذكره في بعض ثنايا هذا الكرّاس فإنّ تصنيف الأولويّات ليس يسيرا بسبب إشتراك أكثر من حقل أو مجال في قيمة ما أو عمل ما. الجوانب الإجتماعيّة والإنسانيّة مثلا تشترك في مثل ذلك كثيرا. ومن ذا فإنّ تصنيف تلك الأولويّات ضمن حقل معيّن قد لا يكون دقيقا. وتظلّ العبرة بالقيمة ذاتها دون طرق حادّ على صنفها

زيجاته عليه السّلام ورعاية الأولويّة الإنسانيّة الإجتماعيّة

سودة بنت زمعة

تزوّجها ﷺ رعاية لأولويّة إجتماعية إنسانيّة. إذ توفّي زوجها وهي من مهاجرات الحبشة. والرّسالة ذات الأولويّة هي أنّ الإسلام لا يترك المرأة المجاهدة المهاجرة شبه أسيرة لنظام عربيّ جاهليّ يزدري المرأة. فكيف إذا أسلمت؟ بل كيف إذا كانت مقاومة شرسة لا تبالي بضغوط المجتمع؟ هو زواج تكريميّ لمثل هذه المرأة العظيمة في مجتمع يئد الأنثى وأدا حقيقيّا لا

مجازيّا. إذ يدفنها وهي حيّة تحت التّراب بسبب لعنة أنوثتها فحسب. إذ هي ليست فحلا يمتطي صهوة الجياد ويقاتل بالسّيف يستوي أن يكون السّيف إسترادادا لحقّ ضائع أو مهدّد. أو أن يكون قهرا لضعيف. أمّنا سودة ـ هذه ـ لم يكن أهلها راضين عن هجرتها إلى الحبشة. وذلك يعني لها من بعد ترمّلها حياة التّشرّد والذّلة. إذ ليس لها أهل إليهم تأوي

حفصة بنت عمر

تزوّجها ﷺ للغرض ذاته. إذ توفّي عنها زوجها صاحب الهجرتين : الحبشة والمدينة. والبدريّ كذلك. أنّى لهذه المرأة الكبيرة أن تترك فريسة لمجتمع لا يرحم الضّعفاء. فما بالك إذا أسلموا؟ لم يكن من بدّ عدا تكريمها. وأيّ كرم أكبر من أن تكون لكلّ مسلم ومسلمة حتّى يوم القيامة أمّا؟ سيما أنّ أباها الفاروق قد عرضها هو بنفسه على أبي بكر وعثمان. ولكن لم يرغبا فيها. هذا عامل آخر جعله ﷺ يكرم صاحبه الأكبر عمر. ذلك الرّجل الذي لولا أنّ الله قيّضه لدينه لما كان لنا اليوم شأن

زينب الهلاليّة

تزوّجها ﷺ للغرض ذاته. وذلك من بعد أن توفّي عنها زوجها الأوّل في بدر الكبرى. ثمّ توفّي عنها زوجها الثّاني في أحد. وكانت تسمّى أمّ المساكين لفرط رقّة قلبها وسخاء يدها. إمرأة مثل هذه لا تترك في مجتمع لا يرعى للمرأة قطميرا. فكيف وهي أرملة. إنّما تزوّجها تكريما لقيم الجهاد والمقاومة. إذ شاء الله سبحانه أن تتزوّج في كلّ مرّة شهيدا. الذين صنعوا للإسلام إسما في الأرض في تلك الأيّام إنّما هم أهل بدر العظمى التي لولاها لما عفا

الله سبحانه عن أحد رجالها ـ حاطب ـ إذ أتى الذي أتى في فتح مكّة. كما أكرم هذا (حاطب) يكرم شهيدان. فلا تظلّ زوجتهما من بعدهما أسيرة مجتمع جشع

أمّ سلمة: هند المخزوميّة

تزوّجها ﷺ من بعد هجرتها من مكّة إلى المدينة. ومن بعد أن قضى زوجها شهيدا في أحد. حقيق بمثلها أن يكرم. إذ لم تكن هجرة النّساء في تلك الأيّام نزهة أو جولة. بل كانت رحلة خطيرة محفوفة بكلّ أصناف العذاب. هو عذاب لقيه حتّى الرّجال. بل ظلّ كثير منهم حبيس مخاوفه في مكّه وهو مؤمن يخفي إيمانه. وعندما تقدم على تلك الرّحلة إمرأة فإنها قمينة بالتّكريم. وعندما يقضي زوجها شهيدا مقاوما دون المدينة ومن فيها فإنّها تكون جديرة بهذا التّكريم مرّات ومرّات. كانت أمّ سلمة ذات حكمة وحصافة ورشد. إذ هي من أنجى الله بها الأمّة جمعاء قاطبة في تلك الأيّام في الحديبيّة. إذ عصى الصّحابة أمر نبيّهم المباشر لأوّل مرّة وآخرها. ولولا أنّ الله سبحانه ألهمها تلك الإشارة الذّكيّة في شأن الحلق لحاق بالنّاس الذي حاق بسلفهم ممّن عصى رسوله. أمّنا أمّ سلمة تزوّجها عليه السّلام وهي أمّ لأربعة أبناء. عامل آخر يبيّن أنّ حركته ﷺ هي حركة إجتماعيّة إنسانيّة محضة

زيجاته عليه السّلام ورعاية الأولويّة السّياسيّة

جويرية بنت الحارث

تزوّجها ﷺ في أثناء المعركة الحربيّة مع بني المصطلق ـ قبيلة إسرائيليّة ذات أصول عربية أي من خزاعة ـ إذ كانت أسيرة في هذه المعركة التي قتل فيها زوجها. إمرأة تفيض حرّية وأنفة وشهامة وكرامة ومروءة. وضاقت بها الدّنيا إذ زجّ بها أهلها في هذه المعركة التي هي ليست معركتها. جاءته عليه السّلام تستعينه على المكاتبة ـ أي تنشد مالا تدفعه لسيّدها ثمنا لإعتاقها ـ فأدرك ﷺ ما يمور به صدر هذه المرأة العظيمة. كيف لا وهو نبيّ الحرّية والكرامة؟ فوافقها على أن يتزوّجها ففعلت. ولمّا فعلت لم يكن من بدّ عدا تسريح كلّ الأسرى من بني المصطلق تكريما لزوج محمّد عليه السّلام. فكانت محطّة بركة على قومها كلّهم وهلال يمن. وهي من بعد ذلك كلّه بنت سيّد بني المصطلق. ومن ذا كان زواجه بها عليه السّلام رسالة سياسية قويّة إلى سيّد القوم الذين نصره الله عليهم أنّ الإسلام ليس دين إنتقام. بل هو دين رحمة ومودّة وجوار حسن. أراد بناء وشائج سياسيّة متينة مع هذه القبيلة. وأردف ذلك كما أنف ذكره بالمنّ على كلّ أسراهم. وشرّفت أقدار ربّك سبحانه هذه المرأة الأبيّة الكريمة التي لم تتلوّث من قبل بالذّلة والمهانة لتكون للمسلمين والمسلمات حتّى يوم القيامة أمّا. أيّ تكريم هذا : تحرير أسيرة وزواجها من نبيّ الرّحمة محمّد ﷺ والمنّ على أسرى قومها كلّهم وبناء علاقات سياسيّة مع بني المصطلق بما يساهم في حسم الحروب وحقن الدّماء وبثّ الأمن والسّلام بين النّاس؟

أمّ حبيبة رملة بنت أبي سفيان

تزوّجها ﷺ لغرضين كبيرين : الغرض الإجتماعيّ الإنسانيّ. إذ أنّها زوج مرتدّ. إرتدّ زوجها. ومن رحمة النّبوّة تكريم إمرأة مثلها. وليس عجيبا أن تتعرّض لأدنى مضايقة قد لا تسلم منها ألسنة التّقوى ذاتها. من مثل تعييرها أنّها طليقة مرتدّ. ألم يقع مثل هذا بين الأمّهات الكريمات عليهنّ الرّضوان جميعا؟ أجل. وقع. هو أمر يغشى الصدور. وقد لا تنجح الألسنة دوما في كتمه. وهو يؤذي دون ريب. كما أنّ أمّ حبيبة من مهاجري الحبشة الأوّل.

كان تكريمها إذن بالزّواج هديّة رمزيّة لها أنّ الإسلام لا يترك الضّعفاء يئنّون تحت رحمة مجتمع عربيّ لا يعرف الرّحمة. كان تكريما لقيمة عظمى تخلّف عنها رجال كثيرون وهم في أوج قوّتهم. الغرض الآخر هو الغرض السّياسيّ ذاته. إذ أنّها بنت أحد أكبر أسياد قريش. أي أبي سفيان وقد كان في تلك الأيّام مشركا يقاتل الإسلام ونبيّه وأهله دون هوادة. هي رسالة سياسيّة إلى قريش وقادتها أنّ الإسلام لا يتخلّف عن نسج علاقات سياسيّة طيّبة مع النّاس. بل حتّى مع المحاربين وهم في يمّ المعركة. وعندما يكون خصمك الذي يحاربك بسنانه ليل نهار صباح مساء هو صهرك فإنّ مناخات الإحتراب لا مناص لها من التّجفّف مهما أورى الحمقى نيرانها. وربّما كان هذا سببا ـ من أسباب أخرى ـ في إسلام أبي سفيان يوم الفتح. بمثل ذلك ينسج الإسلام عرى الأمن والسّلام مع النّاس : مصاهرة لأبي سفيان أوّلا ثمّ رفع له إلى أعلى مقام (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن). وغير ذلك

صفيّة بنت حيي إبن أخطب

تزوّجها عليه السّلام في أثناء معركة خيبر. إذ وقعت أسيرة وقد مات في تلك المعركة ذاتها أبوها ـ حيي إبن أخطب سيّد بني النّضير من أبرز العائلات الإسرائيليّة ـ وأخوها معا. من لهذه المرأة الأسيرة؟ من لها بعد أن فقدت أكبر سنديها في الحياة : أباها وأخاها معا. وفي معركة واحدة؟ مرّة أخرى ليست الرّسالة ذات أولويّة إجتماعيّة فحسب. إنّما هي رسالة أولويّة سياسيّة كذلك. إذ أنّ أباها هو زعيم القبيلة الإسرائيليّة الأكبر. صحيح أنّ أباها مات. ولكنّ الرّسالة موجّهة إلى رؤساء القبيلة من بعده. إذ العبرة بنسج أسباب الأمن والسّلام مع الجوار المحيط. هذه المرأة كانت من اللاّتي وقع إجلاؤهنّ من حصونهن في واقعة بني النّضير التي سجّلتها سورة الحشر المدنيّة. عامل آخر يضاف إلى عوامل الرّفق بها وتعزيتها وتسليتها : إمرأة ـ ربّما لم يكن لها شأن أيّام بني النّضير لصغر سنّها ـ هي اليوم يتيمة وأسيرة

أولويّات أمنيّة وسلميّة

الحجر الأسود

معلوم بلا نكير أنّه ﷺ ألهم الحكمة من لدن ربّه سبحانه إذ حكّمه قومه في وضع الحجر الأسود في مكانه من البيت الحرام من بعد أن تنازعوا حتى كادت الدّماء أن تسيل منهم مدرارا كعادتهم دوما في حسم الخلافات. ذلك أنّهم يجمعون بين أمرين نعجب نحن اليوم من إجتماعهما. كانوا يجمعون في صدورهم بين حبّهم الكعبة البيت الحرام بقيّة ممّا ورثوا من

ملّة إبراهيم عليه السّلام. ولكن بتحريفات وتزييفات أحالتهم مشركين أقحاحا. وبين كبريائهم على بقية العرب أنّهم هم أهل الكعبة محجّ النّاس ورمز الدّين. الذين يتخرّصون اليوم منّا أنّهم لم يكونوا يقيمون للكعبة أيّ إعتبار حقّهم التعلّم. وليس القول على النّاس بغير علم حتّى لو كانوا ليسوا مثلهم دينا. فما إن إنتهى إليه الأمر ﷺ حكما بينهم ـ وكلّ ذلك قبل البعثة ـ حتّى جاءهم بالحكمة كلّها. إذ وضع الحجر الأسود على قطعة قماش وبذلك تسنّى لهم جميعا أن يأخذوه إلى مكانه فحقن بفضل الله دماءهم وحسم خلافهم ووحّد صفّهم. كان يمكنه غير ذلك. لم يكن يقرّهم على دينهم وشركهم حتّى وهو لم يكن بالسّماء موصولا بعد. ولكن حكمة الله ترعاه ﷺ إذ إختار لهم وحدة الصّف وهم مشركون لا يقرّهم على شركهم. كان يمكن أن ينحاز إلى بطنه هو ليكونوا أهل سبق في وضع الحجر الأسود. وتظلّ قريش تدين لهم بذلك أبد الدّهر. وكلّ العرب من ورائها. أولويّات كثيرة أخرى. عدا أنّه إختار لهم ـ وهم مشركون وهو على تمام الوعي بشركهم ـ صّفا واحدا مرصوصا يغشاه السّلم والأمن وليس الإحتراب وإهراق الدّماء وتيتيم الضّعفة وإيراء سخائم في الصّدور هي أشدّ إحراقا من النّار المضطرمة

حلف الفضول

حلف الفضول ـ أو حلف المطيّبين ـ مشهد ثابت في سيرته من قبل بعثته عليه السّلام وهو مشهد ساقه الله إليه سوقا. إذ لم يكن فيه فاعلا ـ كما كان في واقعة الحجر الأسود ـ وما ذاك سوى ليحقن صدره ﷺ ـ وهو يصطنعه على عينه سبحانه ـ بقيمة إنصاف المظلوم وبثّ الأمن والسّلم.

نشأ حلف الفضول من بعد أن لحق قريشا بعض العار والعيب إذ أضحى الغريب فيها يظلم فلا ينتصر له أحد. ومن ذا ـ وبدافع عصبيّ عرقيّ في الأصل ـ تداعى سادتها إلى تأسيس وثيقة شفويّة قوامها ألاّ يقهر فينا بعد اليوم مظلوم كائنا من كان عرقه أو لسانه أو أصله. أراد سبحانه أن يسوق نبيّه الذي يعدّه لمثل تلك القيم العظمى حتّى يعلم منذ الآن أنّ القيم الإنسانية لم يأت الإسلام إلاّ لترسيخها وأنّها فوق الأعراق والألوان والعناصر والأديان. هي جرعة قيميّة كان لا مناص له ﷺ منها غذاء روحيا وفكريا لمعالجة ما ينتظره في غيب الله المغيب سبحانه. حلف الفضول يعني في أيّامنا تأسيس منابر العدل ورعايتها والمساهمة فيها لأجل دعم قضايا الحقّ والأمن والسّلام والمساواة بغضّ النّظر عمّن يفيد منها. إذ القيمة مقدّسة في ذاتها وليس لذات أصحابها. يمكن أن يكون هذا اليوم حزبا سياسيّا أو جمعية أو منظّمة أو إئتلافا أو منبرا إعلاميّا أو أيّ مؤسّسة في أيّ تخصّص أو حقل مادام يسعى لإرساء القيم العليا التي جاء بها الإسلام أو أقرّها. الإشتراك في ذلك مع غير المسلمين سيرة نبويّة وسنّة محكمة

ودائع قريش

تربّع ﷺ حقّا وعدلا وصدقا فوق عرش الوفاء فلا ينازع عليه مطلقا. وذلك عندما أبى إلاّ أن يضحّي بعليّ ـ عليه الرّضوان ـ إذ عهد إليه أن يردّ ودائع المشركين في مكّة لأصحابها وهو يعدّ العدّة للهجرة. جمع في حصافة الأنبياء بين الحسنيين : حسنى لزوم السّرّية في الهجرة أن يثير حربا هوجاء بين النّاس من جهة وحسنى الوفاء لمن جمع بين السّوأتين كلتيهما : سوأة

تكذيب نبيّ منهم كبرا وسوأة إخراجه من قومه وأهله ووطنه. بلغ به حبّ الوفاء مبلغا هو الأعظم وذلك عندما إستأمن على ودائع الذين يقتلون أصحابه ويهجّرونهم شرقا وغربا بغير حقّ رجلا من رحمه هو إبن عمّه عليّ عليه الرّضوان الذي كان يمكن أن يتعرّض لأذاهم. هل بعد هذا الوفاء وفاء؟ اللهمّ لا. اللهمّ فاشهد. هل سأل عن أصل تلك الودائع هل هي من حلال أو حرام؟ أبدا. هل إرتاب طرفة عين هل تردّ إلى أهلها حتّى لو كان مع ردّها إليهم مغامرة برجل بريء هو عليّ؟ أبدا. هل قايض تلك الودائع بما ذهب به المشركون وهو كثير منه أنفس بشريّة قتلت ظلما من مثل سميّة العظيمة ورجال هاجروا إلى الحبشة تاركين خلفهم أموالهم؟ أبدا. ألا ما أصدق المشركين إذ أضحوا ينادونه قبل البعثة من بعد ما عرفوه وعركوه وجرّبوه : الصّادق الأمين. ألا ما أصدقه إذ قال ﷺ : الرّائد لا يكذب أهله

المصابرات والهجرات بدل المقاومات باليد

لماذا كانت أولويّة الصّبر الجميل والطّويل أولويّة مقدّمة في الدّعوة الإسلاميّة؟ هذا السّؤال مهمّ بسبب أنّ النّاس اليوم إفترقوا فيه فرقتين : فرقة تصبر صبرا سلبيّا هو أدنى إلى الإستكانة والرّضى بالدّون والهوان. وهو صبر العاجز المقهور المغلوب. بل إنّ هذا قد يفضي إلى الإلتحاق بفرقة الجبريّة. ومن ذا تكون عقيدة المؤمن على شفا جرف هار. وفرقة على الضّدّ من ذلك بالتّمام والكمال إذ هي تهجم على معالم الباطل وشخوص الكفر هجوما لئن حمل معه الحقّ فإنّه عفو من كلّ حكمة وميزان. ومن ذا تكون عواقبه وخيمة سيّئة. الخطر المحدق بالفرقة الثّانية هو أنّهم قد

يكون بعضهم منتصرا لنفسه وليس لدين الله سبحانه وتصبح العداوة بينهم وبين الآخرين شخصية ولا علاقة لها ـ مع الأيّام ـ بالفكرة والقيمة والقضية. قلب الإنسان مثل قارورة زجاجيّة ملأت محلولا قابلا للتلوّن بكلّ لون جديد بحسب حرارة المحيط أو برودته أو غير ذلك ومن ذا فإنّ رعايته مهمّة دائمة. ومن ذا طلب من الإنسان طرد الغفلة ومعانقة الذّكر. قلب المرء أكثر تقلّبا من الماء في القدر الغالي. فلا يأمن المرء على نفسه شبهة أو حتّى ضلالا وهو يحسب أنّه يحسن صنعا. ولو كان ذلك غير كذلك لما ظلّ الوحي يبدئ ويعيد في كلّ مرّة بضرورة لزوم الثّبات.

الثّبات ذاته مستويات. صحيح أنّ الأمّة كلّها ثابتة على الصّراط المستقيم. ولكن من منهم ثابت على منطقة العدل في ذلك الصّراط المستقيم؟ ومن منهم يثبت على ما يلقاه مقاوما؟ ومن منهم يثبت أصلا على المقاومة صارفا دعوات نفسه إلى السّكون؟ ومن ذلك فإنّه ﷺ ـ ومن معه من الصّحابة ـ لجأ إلى المصابرات الطّويلة والجميلة في مقابل أذى تنوء به الجبال الرّاسيات. ولم يكن يعوزه ومن معه ـ من مثل حمزة وعمر وغيرهما ـ أن ينتقم ويثأر. حتّى الإنتقام لله سبحانه وحده دون حظّ نفس لم يكن يعوز رجالا لهم باع في الجاهلية قبل الإسلام. إنّما تحمّلوا المقاومات والمجاهدات بالصّبر والمصابرة والإصطبار كأحسن ما يكون ذلك. وحتّى عندما ينفد الصّبر فإنّهم يلجؤون إلى الهجرة. إذ هاجروا مرّتين إلى الحبشة. وهاجر هو ﷺ مرّة إلى ثقيف. ثمّ هاجروا كلّهم إلى المدينة. هل تظنّ أنّ آل ياسر كانوا عجزة أن يحموا أنفسهم من بطش قريش؟ أبدا. ولكنّهم تشرّبوا التّعليم الإسلاميّ الدّاعي إلى الصّبر تشرّبا أعجب من العجب العجاب. جاؤوا بقيمة أخرى دوّخت العرب. وهي قيمة ضبط النّفس أن تأوي كعادة العربيّ دوما

إلى الثّارات. تلك القيمة لم تكن هيّنة في رأس العربيّ. ولذلك حصل عندي أنّ الإسلام من أكبر معجزاته العظمى التي نحن اليوم عنها غافلون أنّه صنع النّاس صنعا جديدا على غير سابق مثال. وذلك إذ حقنهم بقيمة ضبط النّفس صبرا لله وحده سبحانه وإيمانا بفكرة ودين وقضية. وليس طلبا لمغنم أو خوفا من أحد سوى الله سبحانه. ولذلك قال عليه السّلام يؤكّد هذا : ليس الشّديد بالصّرعة إنّما الشّديد الذي يملك نفسه عند الغضب. تلك قيمة كفيلة بجعل النّاس ـ ولكن بعد سنوات طويلات أو عقودا ـ يؤمنون أنّ أولئك الذين كانوا يعذبونهم إنّما كانوا يحملون قضية لولاها هي ما صبروا وما ضبطوا أنفسهم ولما تحمّلوا ما تنوء به الجبال الرّاسيات. ذلك هو الوجه الآخر للصّبر أي قمع النفس قمعا مغلّظا حتّى تخلص لربّها ولقضيتها من جهة. ومن جهة أخرى حتّى يعلم النّاس أنّ المشكلة ليست شخصية. إنّما هي بالتّعبير القرآنيّ الكريم (هذان خصمان إختصموا في ربّهم). الخصومة في الله وليس في النّفس. البديل عن تلك المصابرات والمقاومات والمجاهدات والهجرات والإنضباطات العجيبة إنّما هو ردّ الفعل والمعاملة بالمثل عدلا. وهو الأمر الذي أذن به سبحانه عندما كانت الظّروف مواتية

مع سراقة إبن مالك

رصدت قريش لمن يدلّ على محمّد ﷺ من بعد غيابه عن مكّة مهاجرا جائزة هي الأعظم. أي مائة من الإبل. فكان ممّن تجنّد لهذا سراقة بن مالك. ذلك الشّابّ القرشيّ الفارس. إمتطى صهوة جواده والشّيطان يصوّر له جبال مكّة ذهبا يتلألأ وشاءت أقدار الرّحمان سبحانه أن تسوقه إلى

محمّد ﷺ وهو في الطّريق من غار ثور إلى المدينة يصحبه أبو بكر ومولاه زيد ويقود الرّحلة مشرك. ولمّا لقيه كانت أولويّات كثيرة في متناوله عليه السّلام. هذا الذي جاء يطلبه هو مشرك بل ومعتد مع ذلك. إذ لو لازم شركه فهو حرّ بينه وبين ربّه. ولكنّه يصدّ عن سبيل الله. بل يصدّ نبيّا وليس مصلحا أو عالما أو فاتحا. وهو بعد ذلك كلّه يبحث عن المال الرّخيص الذي سيجنيه في مقابل عمل لا يقوم به الشّريف الكريم في العادة. يعني أنّه جمع كلّ المقبوحات. كان يمكن له ﷺ أن يقتله. وهو يسير عليه. وكان يمكن أن يصفّده بالأغلال ويتركه هناك. قد يسوق له الله سبحانه من يفكّ قيده. وقد يموت صبرا وتأكل الطّير من رأسه ودابّة الأرض من رجله. بل كان يمكن له ألاّ يجيبه أصلا ويتجاهله. ولكنّه إختار ﷺ أولويّة أخرى وذلك بأن دعاه إلى أن يخذّل عنهم وثمن ذلك هو أضعاف مضاعفة لما كان سيجنيه من قريش. أي سوارى كسرى. ألا ترى أنّه ﷺ قرأ شخصية سراقة أحسن قراءة؟ إذ أنّ الرّجل خرج يطلب المال ومن الحكمة أن يعده بما خرج يبحث عنه. ولكن في الحلال المعروف. وليس سحتا ورشوة من قريش. وفوق ذلك كلّه رقّ لحاله إن هو قتله أو تجاهله إذ سيموت كافرا ربّما وقد وصلته الدّعوة كما وصلت كلّ قرشيّ على الأقلّ ويكون ذلك سببا في خلوده في النّار.

كلّ ذلك راعاه ﷺ وإختار لعدوّه الخير كلّه وتوسّل إليه من حيث يغرى وضغط على الزّرّ الذي يفتح فؤاده. أي زرّ المال. وبذلك إنصرف الرّجل وضمن له الله سبحانه بذلك الحسنيين : حسنى الإيمان وحسنى المال الذي غنمه عندما فتح الله سبحانه أرض كسرى على الفاروق في خلافته. وتحقّقت بشارته ﷺ لسراقة. إختار له عليه السّلام أولوية الإيمان وأولوية المال

وحسن الختام وهو عدوّ مقاتل. بل شره جشع تقوده بطنه وإلهه هواه. هذا مشهد عجيب من أولويّات الأمن والسلم والهداية عند نبيّ الإسلام محمّد ﷺ

خالد إبن الوليد من سيف الشيطان إلى سيف الرّحمان

ربّما مرّ بنا الحديث ـ أو سيأتي ـ عن خالد. شابّ ذو مواهب عسكريّة عجيبة ظلّ يحارب وكيلا عن قريش لسنوات طويلات ويقتل الأصحاب. فلمّا أذن سبحانه بالإيمان أن يتسلّل شعاعه ليباشر شغاف فؤاده سلك معه ﷺ مسلكا لا يسكله إلاّ نبيّ. سلك معه أولويّة التّامين والسّلم.

الأولويّات أمامه كانت كثيرة. إذ كان يمكن له أن يدعه مسلما ككلّ مسلم ومؤمنا ككلّ مؤمن في المؤخّرة. سيما أنّه أسلم متأخّرا وتورّط في حرب النبيّ نفسه. وكان يمكن له أن يخضعه لمرحلة تربّص لعلّه يكون منافقا يريد أن يغدر به وبجيشه. وكان يمكن له أن يقتص منه جزاء لما صنع قبل ذلك. وخيارات أخرى كثيرة. ولكنّه ﷺ إختار له الخير كلّه. إذ قدّمه في مكانه المناسب ليكون له قائدا عسكريّا وبذلك يمكّنه من التّكفير عن سيّئاته أيّما تكفير وبالسّلاح ذاته. وأتاح له فرصة مواصلة موهبته وشطارته. وأيّ محنة تصيب المرء المتخصّص في أيّ فنّ إذ يحرم من مزاولة فنّه؟ كما أنّه لم يكسر خاطره ولم يشعره أنّه كان كافرا أو محاربا أو ظالما. بل جعله يشطب ماضيه في طرفة عين. كأن لم يكن.

مشهد آخر من مشاهد فقه الأولويّات النّبويّة في معاملة النّاس. ربّما لو تركه في المؤخّرة لناله من النّاس همز ولمز أنّه قتل أبا هذا وطعن أمّ

هذه. ومن ذا يكون الإسلام عليه نذير شؤم. نبيّ عظيم كريم وهبه الله كرامة قراءة النّفوس وحسن معالجتها بشكل يجعلك مشدوها.ولكن يا ليت قومي يفقهون

أولويّات سياسيّة حيال أمّتنا الأوروبّية

لا مناص من العود هنا مرّة أخرى إلى تقرير أنّنا وجود أوروبّيّ مسلم. تلك هي ضريبة الإنتماء المزدوج. وهي ضريبة دفعها رجل كبير ـ كما أنف معنا ـ أي أبو بصير وغيره كثيرون. يتطلّب الأمر علما شرعيّا صحيحا أوّلا. ثمّ فكرا ووعيا وحكمة. أي ميزانا بلغة الكتاب العزيز. هو عبء ثقيل قلّ من يحسن اليوم إدارته وعيا وتنزيلا معا.

هو إبتلاء من أكبر إبتلاءات الله النّاس. وذلك بسبب أنّ أصحاب هذا الإبتلاء يتعرّضون للطّائشين من الضّفة الشّرقية ممّن ينعتونهم بأنّهم باعوا إنتماءهم الإسلاميّ رضى بالحياة الدنيا. كما يتعرّضون من الضّفة الأخرى ممّن ينعون عليهم أنّهم باعوا إنتماءهم الأوروبّيّ فهم نزلاء غرباء ليس في قلوبهم حنين ولا حبّ لهذا الوطن. هي ضريبة إذا أحسن مسلمو أوروبا علمها وإدارتها وصبروا عليها عقودا طويلة بل قرونا فإنّ الإسلام يندا إن شاء الله ليغمر بنوره المبين كلّ فجّ عميق وجديد.

إذا كان تصريف الأولويّات الإجتماعيّة والإنسانيّة ـ بمثل ما مرّ بنا من أمثلة ـ في أمّتنا الأوروبّية يسيرا فإنّ الأمر مع الأولويّات السّياسيّة ليس باليسر ذاته. وما ذاك سوى بسبب أنّنا ـ من حيث أنّنا وجود أوروبّيّ مسلم ـ جزء لا يتجزّأ من الأمّة الأوروبّيّة ومن أوطانها. أي من سياساتها بصفة

عامّة وإلتزاما بدساتيرها وخياراتها وأكثرها لا يصدم الإسلام ولا يصرم منه لا عقيدة ولا قيمة.

وفي كلّ الأحوال فإنّ ما كان شأنه هنا الصّدم أو الصّرم فإنّه ليس ملزما للمسلم. وله عنه بديل حتّى مع ضيق وعسر في بعض الأحيان. وبذا يكون المقصود هنا من ذكر بعض الأولويّات السّياسيّة ترسيخ بعض القيم الأخلاقيّة العظمى تعاملا مع الآخر المختلف وإبرازا للأبعاد الإنسانيّة التي جاء الإسلام يثبّتها ويعليها من جهة. ومن جهة أخرى تعاونا من الوجود الأوروبّيّ المسلم مع أوطانه الأوروبّيّة ضمن تلك القيم السّياسيّة وأولويّاتها على إشاعة قيم الإسلام العظمى من مثل الحقّ والعدل والقسط والمساواة والتّعاون على الخير والعلم والمعرفة والتّعارف وضمان حقّ التّعدّد وبناء مؤسّسات الأمن والسّلم وغير ذلك ممّا قد تحويه هذه الأولويّات.

مزايا النّظام الفدراليّ المحليّ

لا إخالني مجانبا الصّواب إذ أقول أنّ محمّدا ﷺ هو أوّل من أرسى دعائم النّظام المحلّيّ. وبعيدا عن الأسماء التي لا مشاحّة في الإختلاف فيها فإنّ روح هذا النّظام الذي جاءت به صحيفة المدينة قائمة على وتدين لا مناص منهما لبناء الحضارات العظمى: وتد عنوانه إرسال الحرّيات الفرديّة والعامّة داخليّا على نحو يستوعب الفسيفساء المكوّنة لذلك الوجود. وهو مختلف متعدّد متنوّع دينا وعقيدة ولونا وعنصرا ولسانا بما يمكّن كلّ أناس من ترتيب حياتهم الدّاخليّة الخاصّة وفق ما يريدون فلا يخضعون في ذلك لإرادة أغلبية أو أقلّية. ووتد آخر عنوانه إلتزام كلّ تلك المكوّنات المختلفة بالدّفاع المشترك أمنيّا وبكلّ أنواع الدّفاع عن حوزة الدّولة.

لا يضيرني من بعد ذلك أن تسمّيه نظاما فدراليّا أو محلّيا أو ديمقراطيّا. لا تعنيني الأسماء أبدا. إنّما يعنيني أنّه ﷺ أرسى نظاما إداريا وسياسيّا يجمع بين الحسنيين : حسنى رعاية الحقوق لمكوّنات المدنية على واسع إختلافاتها المعروفة من جهة وحسنى رعاية الواجبات الكلّية لعامّة تلك المكوّنات نفسها من جهة أخرى.

لست خبيرا في العلوم السّياسيّة أو الإداريّة والدّستوريّة لأقول أنّ من أكبر الدّواعي لذلك هو الفسيفساء شديدة التّنوّع في المدينة بما يقاس عليه أيّ وضع يشترك معه في تلك العلّة. ولكنّ المحقّق هو أنّ تلك الوثيقة العظمى علّمت البشريّة ـ لمن ألقى السّمع وهو شهيد ـ أنّ الحضارات تشيّد على أسّ رعاية القيمتين معا : قيمة الحرّيات الدّاخلية من جهة وقيمة تحصين الدّولة بما فيها ومن فيها من كلّ غوائل محتملة من جهة أخرى. كلّ ذلك يعني أنّ تلك الوثيقة هي أوّل دستور سياسيّ إعترف بقيمة المواطنة متساوية الحقوق والواجبات على أسّ إنسانيّ. أسّا لبناء دولة ذات حضارة إنسانيّة منفتحة. أليس ذلك هو أقصى ما وصلت إليه الإجتهادات البشرية إعتلاجا بين حركة حقوقيّة دوليّة دائبة ونفوذ سلطانيّ غربيّ مهيمن؟ إلاّ أنّ ما يبعث الحزن هو أنّ أمّة الإسلام إلاّ قليلا في غفلة من هذا وكأنّ السّيرة السّياسيّة لا تعني شيئا لها

بناء المصالحات وحسن إلتقاط اللّحظة السّياسيّة المناسبة

تجلّى ذلك مرّات. منها على سبيل الذّكر وليس الحصر ما وقع في الحديبية. ولولا أنّ الذي وقع هناك غير ذي دلالات سياسيّة وقيميّة وحضاريّة عظمى ما كان القرآن الكريم ليسجّلها ذكرا يتلى إلى يوم القيامة. ظهرت

هنا مواهب محمّد ﷺ كأجود ما يكون رجل السّياسة إلتقاطا للّحظة السّياسيّة الأنسب وتصريف الأمور وفق ذلك.

تلك هي السّياسة : حسن قراءة في موازين القوى مقدّمة ضروريّة لحسن المعالجة وتوازن الفعل. لماذا إختار ﷺ لبناء أوّل مصالحة سياسيّة وعسكريّة عدوّه الأكبر الذي ظلّ يجيّش الجيوش لسنوات طويلات لأجل سحقه ومحقه؟ هنا حقّا يتميّز الذّكاء الوقّاد عن غيره.

بغضّ النّظر عمّا إذا كان ذلك وحيا أوحي به إليه أم هو الإجتهاد. ذلك أنّ الذين يصرّون أنّه وحي ـ وليس لهم عليه دليل وليس لغيرهم ما ينفيه ـ كأنّي بهم ينفون عنه ـ ولو عن حسن طويّة ـ أنّه تربّع على عروش الذّكاء والفطنة. حتّى في المواضع التي ورد فيها عليه عتاب ﷺ (الإذن للمنافقين بالتّخلّف عن تبوك ـ أسرى بدر ـ عبوسه في وجه إبن أم مكتوم) فإنّ الدارس يجد بيسر أنّه راعى جانبا آخر من المسألة قدّمه. ولم يكن غافلا عن الجوانب الأخرى. ولو كان الأمر غير كذلك لما تخلّف عنه الوحي حتّى أمضى هو إجتهاده ﷺ.

بغضّ النّظر عن كلّ ذلك ـ ولا أخفي أنّي من القائلين بأنّ الحديبية كانت إجتهادا سياسيّا منه ﷺ سيما فيما تعلّق ببناء المصالحة مع قريش ـ فإنّ الدّرس الأغلى من الحديبية هو أنّ الإسلام لا يتردّد في بناء المصالحات السّياسيّة حتّى مع أعدى الأعداء مع مراعاة أمرين كبيرين : أوّلهما أن تكون الأرصدة أو جزء كبير مهمّ منها متّجهة نحو إستعلاء الإسلام وتحرّر أمّته وتهيّؤ الإكراهات التي كانت تصدّ عنه إلى الزّوال. ذلك أنّ الإسلام دعوة إلى التّحرّر قبل كلّ شيء. فلا يؤمن إلاّ حرّ. ولا يقبل من غير حرّ إيمان كما قال العلاّمة إبن حزم.

ثاني الأمرين هو إهتبال أيّ مناسبة متاحة لوضع الأسلحة ونبذ الخوف عن النّاس والتّخفيف من سورات الإحتقان الذي لا يزيد الأفئدة في كلا الصّفين إلا ضغائن وأحقادا متراكبة مترسّبة. ذلك هو الذي دعاه ـ في نظري المتواضع ـ ﷺ إلى بناء المصالحة مع قريش. جاء ذلك بعد أن أثخنت الحروب قريشا سيما من بعد هزائم عسكرية ثلاث : هزيمة بدر التي ذهبت بجزء من قادتها. وهزيمة أحد نفسها التي حوّلتها رحمة الله إلى نصر في المحصّلة وهل جنت منها قريش شيئا.

وكانت ثالثة الأثافي ـ كما تقول العرب ـ هزيمة الخندق التي قطّعت أوصال الثّقة بين أهل الكتاب وقريش. بل حتّى بينها وبين غطفان جزئيّا. المناسبة الإستراتيجية إذن بالبعدين العكسريّ والسّياسيّ مواتية لعقد مصالحة وبناء معالجة سلميّة مع قريش. ويظلّ الشّيء الذي يبعث على الحزن مرّة أخرى هو أنّ قليلا جدّا من ساسة اليوم من المسلمين من يفقه هذا. ذاك أفق نبويّ أعلى من يصل إليه وعيا وشجاعة هو أندر من النّدرة إذ كثيرا ما نصرّف السّياسة مع الخصوم بعواطفنا الجامحة. ومتى تسلم عواطفنا دوما من الهوى؟ أليس النّصر محبوبا كما قال سبحانه (وأخرى تحبّونها : نصر من الله وفتح قريب). كانت تلك المصالحة ذات ثمرات لا تعدّ ولا تحصى. منها حصول أوّل تحالف عربيّ شركيّ على أساس عسكريّ سياسيّ معه ﷺ. وهو إنضمام خزاعة إلى حلفه.

تقوم مقاربة الإسلام سياسيّا على أسّ قوامه الفرز بحسب قيم التّحرّر والعدل. وإلاّ فما الذي يجمع بينه وبين قبيلة مشركة. أي خزاعه؟ أليس هي ضجيع قريش عقيدة؟ أين حظّ النّاعقين بثقافة الولاء والبراء هنا بغير علم؟ ولاء من لمن؟ وبراء من ممّن؟ أليس هو الأتقى والأعلم ﷺ؟

أليس هو القدوة في كلّ شيء حتّى السّياسة ﷺ ؟ أدرك ﷺ أنّ قريشا ـ أمّ الوجود العربيّ كلّه ـ يخترمها الهرم. فما أراد لفرط حكمته وحلمه معا ـ بما يفوق كلّ تصوّر لمن ينظر بتواضع ـ أن يسلمها لهرمها ذليلة مخزية. كيف لا وهي عشيرته الأقربين وعشيرة أصحابه الأوّل الذين صنع بهم للإسلام مجدا تليدا؟ ثقافة الإجهاز السّبعيّ على الخصم لا صلة له بالنّبوّة. كثيرون منّا يغمر الأرض بخطاب الإنتصار للإسلام. ولكنّه في الحقيقة لم يتطهّر من حظّ نفسه.

هل أنسينا الدّرس الأفغانيّ الذي ألهب مشاعر المسلمين شرقا وغربا. فلمّا آن أوان الإمتحان الحقيقيّ إكتشفنا أنّنا كنّا نلهث وراء سراب يحسبه الظّمآن ماء فلمّا وردناه وجدناها أفئدة ظاهرها التّقوى وباطنها أثرة كأثرة من يريد الدّنيا فحسب. عندما أنظر في موقف الصّحابة أنفسهم في الحديبيّة أزداد تعلّقا بهذا النّبيّ العظيم حقّا. إذ مضى في بناء مصالحة سياسيّة وعسكريّة مع قريش وليس بين الخندق والحديبية مدّة طويلة. مضى في ذلك وسط معارضة واسعة من صحابته. بل ومن أهل الرّأي فيهم في العادة من مثل الفاروق عمر عليه الرّضوان. معارضة الصّحابة لا غبار عليها. وأكبر أدلّتها عدم طاعتهم إيّاه ﷺ في الحلق أو التّقصير. هنا على وجه التّحديد أزداد تعلّقا بهذا النّبيّ العظيم الذي يجمع بين حسنيي تجويد قراءة الموقف والمضاء فيه بحلم ورفق وهدوء وصفّ مرصوص. إدارة مثل ذلك ليس دوما يسيرا.

إدارة السّياسة مثل إدارة الفقه بتعبيرنا المعاصر. إذ يشتركان في إعتبار المآل. فما غلب على الظّنّ أنّ مآله حسن حقّق على ما في ذلك التّحقيق من إكراهات وعسرات. وما كان على غير ذلك أهمل. قوام الأمر على حسن

ترتيب الأولويات ترتيبا صحيحا. تتجلّى العظمة هنا في التّنازل عن عبادة الإعتمار التي لأجلها خرج ﷺ من المدينة ومظهرا أسبابها هديا وقلائد وإستبدالها بصلح سياسيّ عسكريّ مع عدوّ الأمس الذي مازالت أسيافه تقطر من دماء الصّحابة. من يمنّ الله عليه ـ في كلّ زمان ـ بمثل هذا الوعي الأعظم؟ قليل من قليل من قليل. ذلك أحس مثال لحسن تصريف فقه الأولويّات العامّة. من مثل السّياسة التي تشتبك فيها المصالح مع المفاسد فلا يحسن فرزها إلاّ من زكّى نفسه لتخلص لله وحده سبحانه من جهة. ولا ينشد نصرا يرسم في أرحامه إسمه هو من جهة أخرى. ومن عقل بفؤاده مكوّنات المشهد وعلم أنّ قيمة الأمن والسّلم تشترى بكلّ غال ونفيس من جهة ثالثة.

الوفاء بالعقود وخاصّة مع الخصم الحاضر والعدوّ القديم

لكم أبدع الإمام الشّاطبيّ وهو يقول أنّ الدين جاء لقمع الأهواء. ذئب التّديّن إنّما هو الهوى. وخاصّة إذا تدثّر بالتّقوى وأغرى النّاس ودغدغ العواطف. تتجلّى عظمة محمّد عليه السّلام في وفائه بالعقود والعهود مع خصومه وأعدائه الذين قاتلوه طويلا ونالوا منه كثيرا ولم يألوا أيّ جهد لمحق دينه وسحق أصحابه. هنا يتميّز باغي الله وحده سبحانه عمّن يبغي الله ومعه بعضا من حظ نفسه.

من المؤكّد أنّ أشدّ محنة إخترقت فؤاده ﷺ ـ فيما أرى ـ هي إصراره الكبير وبدون هواده ولا تردّد ولا تلعثم على ردّ أبي جندل إلى قريش تفتنه عن دينه وهو يستصرخه مستغيثا في مشهد يمزّق نياط القلوب. فعل ذلك عليه السّلام وهو لا شكّ يكابد في رحمه ما لا يكابده ذلك الفتى المفتون

نفسه. ولكنّ قيمة الصّبر ليست كما نفهمها نحن اليوم. قيمة الصّبر هنا عندما يقدّم عليه السّلام أولويّة الوفاء بعهد مع عدوّ شرس ومداده مازال غضّا طريّا على إحتضان شابّ يستصرخه وهو مفتون. هل يجرؤ مؤمن بالله واليوم الآخر ليقول أنّ فؤاده ﷺ لم يكن هو الأشدّ تمزّقا في تلك اللّحظة؟ أبدا. ولكن إبتلي بأعظم إبتلاء وهو إمضاء ثمرة فقه الأولويّات فنجح ﷺ. من يجرؤ على مثل هذا اليوم وفي كلّ يوم؟ هل تعلم أنّ أكثرنا لا يجرؤ عليه. ليس جهلا به. وإنّما خوفا من النّاس؟ أجل. ذئب السّياسيّ هو خوفه من النّاس. لأنّ عينه على أصواتهم وليس على قلوبهم. إلاّ قليلا طبعا.

هنا ليس المطلوب العلم بفقه الأولويّات. لأنّ العلم به معلوم. هنا لا يتميّز عالم عن عالم. إنّما يتميّز صبور عن صبور وصبّار عن صبّار. ألا ترى أنّ ذلك المشهد كان وجبة أخرى من الوجبات التي ملأت قلوب الصّحابة عليهم الرّضوان جميعا إستنكارا لمنقلبات الحديبيّة؟ تلك هي ضريبة السّياسيّ. مثله مثل العالم. كلاهما مبتلى من النّاس. هل يقدّم رضى النّاس أم رضى ما إطمأن إليه وله عليه من الوحي دليل؟ ومثل ذلك جرى له من بعد ذلك بأسابيع أو شهور مع أبي بصير كما مرّ بنا. إذ كان معرّضا لأن يؤخّر عهده مع قريش سيما أنّ قريشا ـ على خلاف المشهد مع أبي جندل ـ بعيدة عنه. ولكنّه لم يتردّد مرّة أخرى أن يردّ أبا بصير المسلم الجديد ولا يقبله مواطنا في حماه الجغرافيّ وفاء بالعهد مع قريش. لا تردّد ولا تلعثم ولا مساومة عندما يتعلّق الأمر بالعقود والعهود. وخاصّة مع الخصوم والأعداء. الوفاء لمن تحبّ أو لك به أيّ رابطة وفاء سهل يسير. وليس هو في الأعمّ الأغلب محطّ الإبتلاء. إنّما يكون الإبتلاء الأعظم وفاء

للخصم والعدوّ أو خيانة وغدرا. مرّة أخرى أقول أنّ المشكلة هنا ليست مشكلة علم. بل هي مشكلة صبر على تجرّع ما يشبه السّمّ. كما أنّه ﷺ لم يتردّد في الوفاء لشريكه العسكريّ وحليفه السّياسيّ المشرك أي قبيلة خزاعة. وذلك عندما تعرضّت لعدوان في مكّة من لدن بعض القبائل ومن المعتدين رجال من قريش ذاتها. هنا إلتقى عهدان : عهده مع قريش أن توضع الحرب وتغمد السّيوف لمدة عشر سنوات كاملات وعهده مع خزاعة أن يكون كلاهما للآخر حليفا ينجده إذا ظلم. لم يمنعه صلحه مع قريش وقد إعتدى بعض من رجالها على حليفه خزاعه أن ينتصر لخزاعة. ومن ذا جاءت أقدار الرّحمان سبحانه بفتح مكّة. ذلك هو المعنى الحقيقيّ لهذه السّنة العمرانيّة ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾. نزلت تعقيبا على تجربة يوسف عليه السّلام. ولكنّها قانون عمرانيّ مطّرد ماض. إتّقى ﷺ ربّه في عهده مع قريش التي لأجل التّعاقد معها لم يقبل إنجاد لا أبي جندل ولا أبي بصير وصبر عليه صبرا جميلا رغم معارضة الصّحابة وما يلقاه هو نفسه في صدره فأبدله الله بذلك فتحا مبينا ونصرا عظيما. ولذلك قال الأصوليّون في قواعدهم : العقد شريعة المتعاقدين. العقد لا دين له. دينه الأوحد هو الوفاء به الذي عدّه الله سبحانه تقوى وإستقامة في قوله سبحانه : فما إستقاموا لكم فاستقيموا لهم. إنّ الله يحبّ المتّقين

الخائف على الإسلام مثل الخائف منه

ترى ما الذي حمله ﷺ على التّوقيع على صلح الحديبية الذي يحتوي على بند يلزمه ﷺ على عدم قبول أيّ مسلم فرّ من قريش إليه وهو مطالب

برده إلى قريش إسوة بما جرى مع أبي جندل. وبند آخر يلزمه هو نفسه ﷺ بعدم عضل أيّ مسلم من صحابته يريد الإرتداد عن دينه والعودة إلى قريش؟ ما يبعث على الحزن أنّ كثيرا منّا مازال يقف مشدوها هنا حيران. لا يريد تصديق هذا. ومنّا من ينسب ذلك إلى الكلمة البذيئة التي نسمّيها نحن اليوم (تكتيك سياسيّ). أي خدعة. هما سؤالان إذن. سؤال عمّا حمله عليه السّلام على قبول ما عدّه الصّحابة دنيّة في الدّين. وسؤال عمّا جعلنا نحن اليوم متربّصين بهذا ونبحث له عن مخارج ترضي كبرياءنا. أليس كان يمكنه ﷺ أن يبني تلك المصالحة مع قريش من دون القبول بهذه الدّنيّة؟ أليس كان يغامر بصحابته الذين قد يغلبهم الشّوق إلى مكّة وأطلالها فيعلنون الرّدّة بألسنتهم وصدورهم مطمئنّة بالإيمان لأجل تكحيل أعينهم بوهاد تربّوا بينها وجبال تضطرم بذكرياتهم الجميلة في مكّة. سيما أنّهم كانوا قاب قوسين أو أدنى من ذلك حتّى حيل بينهم وبين ذلك في إثر هذه المصالحة؟ لا. يا سيّدي. ذلك هو مبلغنا نحن من العلم. إذ لم يحدّث أيّ صحابيّ مهاجر نفسه بذلك مجرّد حديث. ولم يقدم على ذلك أيّ واحد منهم. لا.يا سيّدي. محمّد ﷺ يعرف ماذا يفعل وعلى ماذا يراهن. ثقته في الرّجال الذين أرضعهم من حلمة الإيمان بنفسه وفي حجره لا تهزّها شغبات مثل هذه. الذين تركوا مكّة مختارين الله واليوم الآخر على الدنيا أكبر من أن تستدرجهم قريش بمثل تلك البنود التي تسيل لعاب الإمّعات. على قريش التي بدأ نجمها بالأفول أن تفعل مثل ذلك فيما يشبه رقصة الدّيك المذبوح. وعليه هو ﷺ أن يستجيب لذلك إمعانا في توفير كلّ شروط الصّلح وإستنبات الأمن حتّى من الصّخور الصّلدة. وهل يعود الدّيك المذبوح إلى الحياة؟ إتاحة حقّ الرّدة أمام الصّحابة ـ والحقيقة أمام كلّ مسلم ـ في أيّ دستور أو قانون أو مصالحة لا يغيّر من الأمر شيئا. إذا كان

المسلم يبحث عن أيّ فرصة للرّدة فهو ملاقيها. ومن يمنعه أصلا؟ الإيمان لا تحكمه القوانين والدّساتير والمصالحات مهما كانت في رأي القاصرين مثلنا دنيّة.

الآن ظهر الإسلام وأخضد الله شوكات أعدائه واحدا من بعد الآخر. بدء من المكوّنات التي وقّعت على دستور المدينة بأناملها ثمّ نقضت عهودها ومرورا بقريش وإنتهاء بالجبهة الرّوميّة. لذلك قال ﷺ في صدر الحديبية: ما سألوني اليوم خطّة يعظّمون فيها حرمات الله إلاّ أعطيتهم إيّاها. الدّرس الأغلى من هنا أنّ الخوف على الإسلام وعلى المسلمين أنّهم يهتبلون أيّ ثغرة في المصالحات مع الآخر إنقلابا على دينهم وردّة هو خوف لا مبرّر. بل هو ثغرة في الإيمان ذاته. ذلك أنّ الله نفسه أخبرنا أنّه هو من يحفظ الذّكر. أي الكتاب الذي يصنع الإيمان.

ومن حفظ الذّكر إقتضاء حفظ أشياء أخرى لا يحفظ الذّكر إلاّ بها. فلم الخوف وعلام الخوف؟ الخائف الكيّس الفطن هو من يخاف على موقعه هو من قافلة الإسلام. هل هو في مقدّمتها أو في مؤخّرتها. أو هو ربما مسمار في نعشها وهو لا يعلم؟ الإسلام لم يعرف في تاريخه كلّه ـ سواء كان أهله ضعفاء أو أقوياء أقلّية أو أكثريّة ـ مشكلة إسمها مشكلة الرّدّة عنه. الإسلام وفي كلّ أطواره قوّة وضعفا وقلّة وكثرة لم يعرف عدا الرّدّة إليه. الرّدّة مشكلة دين آخر. لو كان ضعف المسلمين يفضي إلى ردّتهم عن دينهم لأرتدّ المسلمون يوم إستباح هولاكو عاصمة الخلافة وقتها بغداد. فاستحالت مسلخا بأتم معنى الكلمة. ألا ينبئك التّاريخ أنّ حركة الرّدّة ما نالت المغلوبين بل شغبت على الغالبين إذ أسلم التّتار من بعد ذلك بقرنين فحسب؟ الخوف على الإسلام نعرة خسيسة تعكس بضاعة علميّة مزجاة

وفكرة ضيزى. بل إنّ الخوف على الإسلام من بعض شبابه الخلّص قلبا والفارغين علما لا يختلف كثيرا عن الخوف منه. حريّ بالخائفين على الإسلام أن يخافوا على الخائفين منه حلما بهم ولطفا ورفقا ورحمة. فلا يألوا جهدا للصّبر عليهم ولإحسان الحوار معهم

الولاء ولاءان لمسلمي أوروبا

كثر اللّغط حول قيمة الولاء والبراء حتّى رفعها بعضهم إلى عقيدة معقودة. ألسنا هنا مثل الشّيعة الذين حرّفوا الدّين إذ نقلوا الإمامة السّياسيّة من مكانها الطّبيعيّ من حقل العمل إلى حقل الإعتقاد والإيمان؟ أنحن خير من أولئكم؟ إذا كان اللّؤم يلحق العمل قبل عامله فإنّ الأمرين سيّان. التّحريف هو التّحريف.

لا علاقة للولاء والبراء بالإعتقاد من حيث العضوية والتّركيب. وليس من حيث الإمتداد والشّمول والأبعاد القيميّة. إذ أنّ حتّى إماطة الأذى عن الطّريق من حيث أنّها قيمة أخلاقيّة هي إمتداد للعقيدة وبعد من أبعاد الإيمان. ها هو أبو بصير ـ ذلك الرّجل الشّهم الذي أعجب به ﷺ ـ يميّز بين ولاءيه : ولاء عقديّ دينيّ لله ورسوله ﷺ وأمّة الإسلام. وولاء سياسيّ إداريّ قانونيّ يديره هو بنفسه في رقعة جغرافيّة مستقلّة عن دار الإسلام التي يقودها النّبيّ بنفسه ﷺ. كيف يعيب ﷺ عنه ذاك وهو الذي دفعه إلى ذاك وفاء بعهده مع كفّار مشركين. بل محاربين إرتبط معهم بعهد غليظ وميثاق أغلظ؟ وها هو جعفر من قبل ذلك يخضع للولاءين نفسيهما : ولاء لله ورسوله ﷺ وأمّة الإسلام المحاصرة في مكّة وولاء سياسيّ إداريّ قانونيّ لدولة النّجاشيّ النّصرانيّة بالكامل. هل عاب ﷺ ذلك؟ كيف وهو

الذي دفعه ومعه من نساء ورجال إلى ذلك؟ تلك حالات وأمثلة تأتي بها أقدار الرّحمان سبحانه إبتلاء للنّاس. وليست مقصورة على عهد النّبوّة. مسلمو أوروبا بمثل ذلك بالتّمام والكمال. قياسا صحيحا. ولاؤهم ولاءان: ولاء عقديّ دينيّ قيميّ لأمّة الإسلام. أي لله ورسوله ﷺ. وولاء سياسيّ إداريّ قانونيّ لدول أوروبا. لا تعارض بين الولاءين. حتّى لو كان للأمّة اليوم قائد سياسيّ واحد ـ وهو الأصل الإسلاميّ حتّى ضمن كنفدراليّة أو ما شابه ذلك ـ فإنّ ولاء مسلمي أوروبا لدول أوروبا سياسيا وماليا وغير ذلك فيما عدا الإعتقاديّات والتّعبّديّات يظلّ هو هو. لا ينفكّ ذلك الولاء حتّى يظهر في أوروبا ما يكره المسلمين على تغيير ثوابتهم. أي عقائدهم وعباداتهم وقيمهم العظمى التي عليها مدار الدّين. قيام الولاء على أساس المواطنة والأرض والإشتراك في المصالح بالمقام الأوّل. ذلك أنّه ﷺ والى الإسرائيليين في المدينة سيما من بعد التّعاقد معهم على دستور واحد كما والوه هم أنفسهم على الدّفاع عن الدّولة الجديدة. ولكنّه في الآن نفسه ممنوع من موالاة أيّ مسلم في مكّة بإمكانه الهجرة ولم يهاجر. ورد ذلك صحيحا صريحا في قوله سبحانه في سورة الأنفال المدنية ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ . بل إنّ قطع كلّ أسباب الولاء على أساس الدّين فحسب من بعد الهجرة ورد عليه وعيد شديد في قوله سبحانه في سورة النّساء﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. كيف؟

كانت العلاقة بينه ﷺ وبين خزاعة المشركة؟ أليست هي علاقة ولاء سياسيّ وعسكريّ؟ كيف لا وقد هبّ مسرعا وبدون أيّ تردّد لإنجادها. إذ

إنتهى إليه أنّها تعرّضت لعدوان وهي بمكّة وهو بالمدينة؟ كان يمكن أن يخوض معركة حامية الوطيس ويموت فيها أصحابه دفاعا عن مشركين تابعين لقبيلة مشركة إرتبط معها بعقد سياسيّ عسكريّ متين. بل إنّه جاء مستعدا للحرب دفاعا عن حلفائه المشركين لولا أنّ الله سلّم وأبدل المحنة منحة غمر بها الأمن مكّة. أما آن لنا أن نجري على عقولنا عمليات جراحيّة حقيقية ومؤلمة لأجل إعادة إستيعاب قيمة الولاء والبراء بما يتّفق مع القرآن والسنّة والسّيرة وليس بما يتّفق مع غير تلك المصادر المحكّمة؟

وما ذنب المسلم الأوروبيّ القحّ

إذا أساء بعضنا إعادة إستيعاب قيمة الولاء والبراء بما ينسجم مع الإسلام لداء دفين وعلّة قديمة فكيف نحمل على المسلم الأوروبّيّ القحّ أبا عن جدّ وكابرا عن كابر حتّى يركل ولاءه لوطنه الأوروبّيّ. لأنّه بزعمنا غير إسلاميّ ويبحث له عن ولاء إسلاميّ آخر؟ أيّ وطن عربيّ أو إسلاميّ آخر نختاره له ونحن أمّة ممزّقة شذر مذر؟ ما الذين جعله ﷺ يخرج من مكّة باكيا دامع العين وهو يقول : إنّك لأحبّ بلاد الله إليّ ولولا أنّ قومك أخرجوني منك ما خرجت؟ وما الذي جعله يقرّ صحابته الذين قرظوا شعرا في مكّة وهم يخرجون منها مكرهين؟ أليس هو حبّ الوطن؟ حبّ الوطن هل هو مكتسب مثل الدّين؟

لا، أبدا، الإنسان لا يختار في هذه الحياة عدا دينه الذي عليه هو وحده يحاسب يوم القيامة. لا يختار لسانه ولا وطنه ولا عنصره ولا لونه. هل تظنّ أنّ المسلم الأوروبّيّ الأصيل القحّ يغمر قلبه حبّ أيّ وطن عدا الأرض التي فيها ولد وعليها ترعرع ونشأ وشبّ؟ طبعا لا. تلك غريزة فينا مغروزة

وبها حقنّا حقنا عجيبا. كثيرون منّا يهوّنون من شأن الوطن الأوروبّيّ في حضرة المسلم الأوروبّيّ وهي إهانة وسوء أدب. بل هو همز ولمز محقور ومنكور. ما الذي جعله ﷺ يأمر الصّحابة بعدم ذكر أبي جهل بسوء في حضرة إبنه عكرمة؟ أليس مراعاة لتلك الغريزة المغروزة فينا؟

ما ينسحب على الآباء والأجداد والأسلاف ينسحب هو نفسه على الأوطان. بل إنّ بعضنا يعلّم المسلم الأوروبّيّ الجديد كره وطنه بسبب أنّه وطن غير مسلم. هذا تضليل وقول على الله بغير حقّ. لذلك ـ ولأسباب أخرى ـ نشأ كثير من الأوروبّيين المسلمين وهم يحرصون على التّعرّب حرصهم على الإسلام. بل ربّما أكثر. تراهم يحرصون على الملبس العربيّ والمظهر العربيّ حتّى إختلط عندهم الدّين بالتّقاليد العربيّة. كيف لا وقد زيّن لهم بعضنا أنّ تغيير الإسم الأوروبّيّ إلى إسم عربيّ هو فضيلة وسنّة؟ ولاء المسلم الأوروبّيّ الأصيل القحّ لوطنه الأوروبّيّ بالمطلق والكلّية وليس لأيّ وطن آخر.

حتّى لو قامت خلافة إسلاميّة على منهاج النّبوّة فإنّ ولاءه يظلّ لوطنه الأصليّ الأوّليّ. الغرائز ليست رغبات نحوّلها كما نشاء. الإسلام لم يأت لألغاء الغرائز ولا للعبث بها ولا لسحقها ومحقها بإسم التّديّن. الإسلام جاء يعترف بها. الولاء للوطن الأصليّ غريزة لا تغمط الدّين حقّه

التّعاون على الخير في الحياة

معلوم أنّه ﷺ إختار لقيادة رحلة هجرته العظمى من مكّة إلى المدينة رجلا مشركا. هو عبد الله إبن أرقط أو أريقط. هو مشرك عقيدة. ولكنّه ثقة وأمين. تعاون معه ﷺ على إنجاح تلك الرّحلة العظمى التي أسّست

للإسلام الأمّة من بعد أسّست البعثة للإسلام الدّين. لا يعلم إذا كان ﷺ لم يجد غيره من المسلمين أم لا. ولكنّ عدم العلم بذلك لا ينفي أنّه بذلك أراد أن يعلّمنا درسا مفاده أنّ التّعاون مع غير المسلم خارج إطار الدّين الموقوف المعلوم ـ من عقائد وعبادات ـ أمر مباح ومتاح ولا مناص منه ـ لا ضرورة وحاجة فحسب ـ ولكن كذلك مخالطة للنّاس وتعاونا معهم لعلّ الله يكتب لهم الهداية بنا عندما ينبهرون بأخلاقنا. ومآرب أخرى لا أرب لنا فيها الآن لخروجها عن موضوعنا.

طريق الهجرة ليس أمرا دينيا فلا نشترك فيه مع غير مسلم. ومن ذلك أنّه عاد شابّا يهوديّا مريضا في مرض الموت. وهو ضرب من ضروب التّعاون. إذ أنّه ما عاده إلاّ ليرجو له الشّفاء. ولا شكّ أنّه سلّم عليه وألان له الكلام وبعث فيه الطّمأنينة. ولا شكّ أنّه فعل معه ما يفعله كلّ عائد لمريض على حظّ من الخلق عظيم. هل يجرؤ أحد بالقول أنّه عاده فما سلّم عليه أو ما إبتسم له أو ما ألان له كلاما أو رجا له عافية؟ هل هذه عيادة تليق بنبيّ؟ كلّ ذلك لأجل تحريم أيّ تواصل مع غير المسلم. وللغرض ذاته أذن لأحدى زوجاته أن تصل أمّها المشركة.

الإذن بالوصل يعني الإذن بمقتضيات الوصل من كلام طيّب وسلام وتأمين ومؤاكلة ومجالسة ومؤانسة وغير ذلك. وإلاّ فإنّ الوصل عندما يكون عذابا فما عاد يسمّى وصلا بل قطعا. بل إنّه هرع إلى عمّه أبي طالب في مرض موته وعرض ﷺ ورجاه بحرارة أن يسلم عرفانا بفضله عليه وهو فضل أغدق به الله عليه بعمّه. بل إنّه حزن عليه بعد موته حزنه على زوجه خديجة إذ كان ذلك في غضون شهور قريبات. نبيّ يحزن على مشرك أبى الإيمان إباء؟ أجل. ولم لا؟ أليس الحزن غريزة؟ كانت العجيبة لو أنّه

لم يحزن على رجل كفله وأغدق عليه ما لم يغدق عليه غيره من بعد ربّه سبحانه. وليست العجيبة أنّه حزن عليه. ألا بئس تديّن يقلب فينا القيم والمفاهيم رأسا على عقب

فقه الأولويّات بين المال والإنسان

هذه قيمة أخرى باطنها فكريّ أخلاقيّ وظاهرها سياسيّ. ذلك أنّه عليه السّلام كان يقدّم الإنسان دوما أولويّة مطلقة عندما يتعارض أمنه مع المال. لمّا إشتدّ الحصار العسكريّ القرشيّ الغطفانيّ على المدينة وجاوز أسابيع مضنية عرض ﷺ على الصّحابة ـ وهو يريد الأنصار في الحقيقة إذ هم أهل المال والأرض ـ أن يعطي غطفان ثلث تمر المدينة لأجل فكّ الحصار. ثلث تمر المدينة يعني ثلث ميزانية الدّولة إذ أنّ أكثر مال المدينة هو التّمر. والثّلث نفسه كثير. بل إنّ ذلك قد يفضي إلى بعض الجوع. ولكنّ الثّمن هو إستعادة الأمن من بعد حصار عسكريّ شاقّ ومرهق. ومعلوم أنّ المستفيدين من نعمة الأمن ليسوا هم المسلمون فحسب. إنّما كلّ سكّان المدينة على إختلاف دينهم وعنصرهم. أنّى له أن يعطي ثلث ميزانية الدّولة كلّها لمشرك محارب في حالة حصار ضده؟

عندما تجمع الصّورة كلّها تجد أنّه يفعل ذلك ليعلّم الإنسانية الأمرين معا : قيمة أخلاقيّة فكريّة عظمى عنوانها أنّ الإنسان ـ أيّا كان دينه ـ هو مقدّم على المال. فهو مكرّم والمال كان لخدمته وتحقيق أمنه وسعادته. وقيمة عسكريّة سياسيّة كبرى عنوانها إجتراح المناورات المطلوبة لأجل تفتيت جبهة العدوّ. إذ أنّ التّفرغ لعدوّ واحد أيسر بكثير من مقاومة أعداء كثيرين.

هناك قيمة أخرى ربّما كان يقصدها ﷺ وهي أنّه كان يريد جسّ الجاهزيّة النّفسيّة والقتاليّة لأصحابه من بعد حصار شديد. فإذا لمس فيهم قوّة عدل عن موقفه. وإذا لمس فيهم ضعفا مضى فيه. الأمر نفسه تقريبا جرى مع قبيلة ثقيف. إذ نصره الله عليها في حنين. ذلك أنّه لمّا طلب منه رؤساء القبيلة إعادة بعض أموالهم المغنومة إليهم إستجاب دون تردّد. وكانت أموالا من كلّ صنف ولكثرها غطّت الوهاد والنّجاد. فأفضى ذلك الكرم الواسع إلى إسلام القبيلة كلّها. ألا ترى أنّه يعلّمنا فقه ذلك السّهم الذي جعله الله سبحانه مصرفا من مصارف الزّكاة. أي سهم المؤلّفة قلوبهم؟ هذا الذي ورد في الزّكاة ليس مصرفا أو سهما فحسب. بل هو قيمة عظمى. عنوانها أنّ الإنسان يمكن أن يكون أقصر طريق إلى هدايته : بذل المال. ومن ذا فإنّ هداية رجل واحد بما حملت الأرض أرضى عند الله سبحانه من قتاله. إذ أن قتاله سيجني عليه هو ويجني على من معه ومن حوله لتمتلأ صدورهم بوعثاء البغضاء أبدا. في حين أنّ إغراءه بالمال رحمة به هو نفسه وغرسا لقيمة عظمى في البشرية. من ينكر أنّ النّفس لا تحبّ المال؟ ألم يقل سبحانه : وإنّه لحبّ الخير لشديد؟

أولويّات داخليّة لإدارة الوجود الأوروبّيّ المسلم

بنى الله سبحانه كونه وخلقه وإجتماع عباده على أساس الموازنة بين مطالب داخلية ذاتية تحصّن الوجود الدّاخليّ ومطالب موضوعيّة تؤهّل ذلك الوجود للقيام بدوره تفاعلا مع محيطه الخارجيّ. لا ينفكّ عن ذلك التّوازن إنسان ولا أسرة ولا جماعة ولا أمّة. لا ينشأ النّجاح في الحياة إلاّ برعاية ذلك التّوازن. ومن ذلك علّم الله سبحانه الأمّة الإسلاميّة المنهزمة

عسكريّا في عدوان أحد درسا بليغا. إذ نبّههم إلى أنّ سبب الهزيمة ذاتيّ داخليّ وقال لهم ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾. تلك سنّة ماضية في إدارة الحياة أن يعفي الإنسان نفسه أو أمّته من المسؤوليّة ويعلّق هزامه على مشاجب الآخرين. ولا يعني ذلك إعفاء الآخرين من المسؤوليّة ذاتها. ولكن لكلّ مقام مقال.

حريّ بنا إذن أن نلتقط ما تيسّر لنا من سيرة محمّد عليه السّلام من قيم ذات أولوية لحسن إدارة الوجود الأوروبّيّ المسلم. وفيها من ذلك ما لا يكاد يحصى أو يعدّ. وحسبنا هنا ما يفي بالغرض أو يسيل مداد أقلام هي أحكم نفاذا إليه أو أبلغ لسانا

المحاضن وحدها تؤمّن زاد الحياة

أليس مثيرا للإنتباه أنّه ﷺ أسّس لذلك العدد الصّغير من صحابته المؤمنين به في مكّة محضنا سرّيا صغيرا في دار الأرقم بن أبي الأرقم متحدّيا حالات التخطّف التي تحيط بهم من كل صوب وحدب؟ ألم يكن الأولى إعفاؤهم من تبعات ذلك المحضن. إذ هو مهدّد بالإنكشاف من لدن قريش مع مطلع كلّ فجر جديد؟ ما أقدم على تلك المغامرة ﷺ سوى لأنّه يعلم حقّ العلم أنّه لا بدّ من محضن تعليميّ تربويّ يأوي إليه أولئك الأصحاب الأوّل الذين قالوا في تلك التّجربة من بعد ذلك (كان ﷺ يفرغنا ثمّ يملؤنا). ألم يخضع هو نفسه لذلك المحضن التّربويّ التعبويّ. إذ ندبه ربّه سبحانه في أوّل أيّام بعثته إلى تربّص روحيّ ثقيل ودائم فقال له ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلً﴾؟ كلّ ذلك يخبرنا أنّه لا مناص لنا جميعا ـ وخاصّة الجدد على الإسلام من ناحية والنّاشئة والشّباب من ناحية أخرى ـ من برد تلك المحاضن التي

ربّما لا تعود بعلم كثير علينا. إذ العلم ليس محالّه المؤسّسات. ولكن تعود بما هو أغنى من العلم. أي قيما روحية تربويّة نفسيّة تجعل المرء طول حياته ثابتا على خطّ مستقيم من العدل والتّقوى وحدّ أدنى من الورع لا يحيد عنه مهما إدلهمّت الخطوب من حوله أو نشز النّاس. أليست أزمة القيم الأخلاقيّة هي أوّل الأزمات التي تهدّد البشريّة؟ طريق العلم طويل. ولكنّه متاح حتّى خارج تلك المحاضن. ولكنّ العلم وحده لا يبني الشّخصيّة الإسلاميّة المتوازنة. الكتابة هنا لا تغني شيئا. إذ أنّ الحديث هنا عن شيء يعيشه المرء ويحياه وليس للألسنة عليه والأقلام من سلطان.

المساجد نفسها لا تؤمّن تلك الجرعات اللاّزمة من أغذية روحيّة يقاوم بها المرء تضاريس الحياة. ما تؤمّنه تلك المحاضن وتعجز عنه كلّ المنابر الأخرى هو تلك العلاقة الحميميّة بين المؤهّلين للتّربية. ومن ذا تنشأ وشائج التّآخي الذي يظلّ ينافح عن دين صاحبه عندما تهجم خطوب الحقد وتعسعس شغبات الأثرة ويتبرّج الحسد. الحياة معركة مليئة بالأشواك ولا ينجح فيها سوى الكادح إلى ربّه سبحانه كدحا لا يعوقه شيء. فإذا تعوّق قام من جديد ساعيا ومكابدا. الجولة الحاسمة من تلك المعركة الدّائبة هي الجولة السّاخنة الحامية مع النّفس التي تلدغ صاحبها مع كلّ طرفة عين جديدة بسموم ناقعات. ومن ذا علّمنا سبحانه هذه السّنة العظمى ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾. ليست آمرة على إستحياء. إنّما أمّارة لا تستحي ولا يهدأ لها أوار حتى ينشب الحريق في صاحبها ليأكل ما قدّم مثل عائد في قيئه. إذا كان نبيّ الله محمّد ﷺ ـ وما أدراك من هو ـ قد أخضع لذلك التّربّص سنوات طويلات حتّى تشقّقت قدماه الشّريفتان فإنّ غيره ممّن هو أدنى منه ـ وما من مخلوق إلاّ وهو أدنى منه ـ لهو بأشدّ حاجة إلى ذلك

المسجد عماد الدّين

لم يتردّد ﷺ وهو يصل إلى المدينة متعبا منهكا في تشييد مسجد صغير متواضع بما تيسّر من طوب وجريد عفوا ربّما من سقف وغير ذلك من علامات الزّينة والقوّة. هل كان يخشى على المهاجرين الذين سبقوه إلى المدينة أن يدعوا صلاتهم؟ هل كان يخشى عليهم أن يتركوا صلاة الجماعة في رحالهم؟ لم يكن يخشى لا هذا ولا ذاك. إنّما كان يريد أن يعلّم الأمّة أنّ الأمّة تقوم على دعائم لا مناص منها وهي تحديدا دعائم ثلاث كبرى: المسجد الذي يجمع النّاس في الصّلاة اليوميّة لمن إستطاع ومرّة واحدة على وجه الإلزام كلّ أسبوع. ليس الغرض الأوّل من المسجد إقام الصّلاة في دين قال فيه صاحبه ﷺ (جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا). لو كان الغرض الأوّل من المسجد إقام الصّلاة لكتب الله علينا كلّ صلاة كتبا مفروضا ـ كما كتب علينا صلاة الجمعة ـ ألاّ تكون إلاّ في جماعة أو في مسجد. الغرض الأوّل من صلاة الجماعة هي لقاء النّاس. وما ينجرّ عن لقاء النّاس من مصالح ومنافع في الدّين والدّنيا معا. إنّما جعل المسجد رمزا لوحدة كلمة الأمّة وإرتباطهم بدينهم من ناحية وبجماعتهم من ناحية أخرى. وله أغراض أخرى ليس هنا محلّ ذكرها. ولكنّ المقصود الأكبر من هذا هو أنّ المسجد ليس غرضه الأوّل إقام الصّلاة. ولو كان ذلك كذلك لما تركّبت صلاة الجمعة من خطبة أوّلا ثمّ من صلاة ثانيا. ومثلها صلاة العيديـن مع إستقبال الصّلاة وتأخير الخطبة.

العبادة غرض أكبر مقدّم. ولكنّه ليس الأوّل ولا الوحيد. الدّعامة الثّانية لقيام الأمّة هي المؤاخاة التي رتّبها عليه السّلام بين المهاجرين والأنصار.

وربّما يشملها حديث آخر. الدّعامة الثّالثة هي قانون ينظّم العلاقات بين النّاس على أساس المواطنة حقوقا وواجبات. وهو الأمر الذي وقع الحديث عنه هنا في هذا الكرّاس طويلا. المسجد في الإسلام هو العلامة التي يفيء إليها النّاس من كلّ صوب وحدب. ومن ذا إخترع النّاس له من بعد عهد النّبوة مآذن عالية كأنّها علامات يهتدي بها النّاس في ظلمات البرّ والبحر. المسجد هو السّفينة التي يأوي إليها النّاس مرّة واحدة على وجه الوجوب المؤكّد ـ إلاّ معذورا ـ لأجل الإستماع أوّلا وقبل عبادة الصّلاة نفسها إلى رجل منهم يذكّرهم ويحرّضهم أو يعلّمهم أو يدعوهم إلى معالجة مسألة ما جرت في الأسبوع المنصرم أو غير ذلك من مقتضيات كدح الإنسان إلى ربّه سبحانه.

كان المسجد في العهود الأولى هو كلّ شيء. وليس هو مسجد بالمعنى اللّغوي فحسب أي مكانا للسّجود. المسجد الذي يحضن عماد الدّين ـ أي الصّلاة ـ لحريّ وجدير بأنّ يكون هو عماد التّديّن وسرّة الحياة. حتّى إنّ علماء التّخطيط والهندسة في تاريخنا يختارون له سرّة الأرض. أي المكان الأنسب لكلّ النّاس ما أمكن ذلك. المسجد يواجه اليوم منافسين أشدّاء في التّعليم والتّوجيه والتّربية والتّأطير. من مثل النّوادي والجمعيّات والمنظّمات والأحزاب والمنابر الإعلاميّة ومواقع التّواصل الإجتماعيّ التي إستحوذت على كلّ شيء تقريبا. ولكن تظلّ للمسجد حرمته ومكانته ومنزلته الرّوحيّة في قلوب المسلمين. وتظلّ خطبة الجمعة فقرة تعبويّة قارّة. والحقيقة أنّه لا عيب ولا ضير في نشوء مثل تلك المحاضن على هامش المسجد في الحياة العامّة للنّاس. ولكنّ العيب هو إخلاء المسجد من كثير من أدواره ووظائفه ضعفا في الخطاب الإسلاميّ وتهوينا من شأن كثير من

المناشط التي يضفي عليها المسجد روحا خاصّة.

أمّا في حالة الوجود الأوروبّيّ المسلم فإنّ المسجد لهو رئة ذلك الوجود. ولا شيء يجمّع شتات ذلك الوجود أكثر من المسجد. إذ هو رمز الإسلام حتّى عندما يحرم من رفع مآذنه وآذانه وكثير من شعائره

بلغة الحياة : حلم وأناة

البلغة هي ما يتبلّغ به المرء. أي يتغذّى به فييسّر له بلوغ مأربه. علّمنا ﷺ أنّ بلغة الحياة المتقلّبة كدحا وسعيا وكبدا هي : حلم وأناة. وذلك في حديثه للأشجّ بن قيس إذ قال له : إنّ فيك لخصلتين يحبّهما الله ورسوله : الحلم والأناة. الحلم هو الصّبر بوجه آخر. والأناة هي التّريّث والتّبيّن ونبذ الإستعجال. من أكثر علامات صدق أيّ داعية بغضّ النّظر عن دعواه طيبا أو خبثا هي الصّبر عليها. ذلك أنّ الناس يمتحنون كلّ صاحب دعوى رغبا ورهبا. فإنّ صبر عليها حفر له بينهم مصداقيّة. وإن إستعجل الفوز وقطف الثّمرة فطاش حمقا مع الطّائشين منهم فهو مطويّ بسرعة شديدة. كما تطوي الرّياح آثار الأقدام لتغدو أثرا بعد عين. تلك سنّة من سنن الله الماضية.

ومن ذا فإنّه ﷺ ظلّ صابرا في وجه الإبتلاء صبرا جميلا. ويوصي أصحابه بذلك في كلّ مناسبة. من ذلك أنّه كان ﷺ يصلّي حول الكعبة التي تحيط بها الأصنام بالعشرات الكثيرة ويضع الحمقى فوق رأسه ـ وهو ساجد ـ سلا الجزور فيلزم الصّبر الجميل. ويمرّ كلّ يوم على آل عمّار وهم يعذّبون فلا يزيد على أن يقول لهم : صبرا آل ياسر فإنّ موعدكم الجنّة. وقتلت سميّة

أوّل شهيد في الإسلام فما صدرت عن أيّ من أصحابه أيّ رد فعل. وهم العرب الممتلؤون أنفة وشموخا وتعلّقا بالثّأر. وبمثل ذلك وقع مع كثير من أصحابه. سيما من غير أولي الشّوكة من العبيد والإماء والغرباء عن قريش. من مثل بلال الحبشيّ.

لا أظنّ أنّ رجلا مثل عمر كان يعوزه أن ينتقم لنفسه ولغيره ولدينه بنفسه. ولا أظنّ أنّ واحدا من المشركين يسعه أن يواجهه. ومثله عمّه حمزة عليه السّلام. وغيرهما ممّن كانت لهم قبل الإسلام صولات. إنّما إنضبط كلّ أولئك إلى الخطاب الإسلاميّ الجديد ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾. وما من سورة مكّية ـ سيما من المفصّل ـ إلاّ وهي تأمر بالصّبر الجميل. فضّل هؤلاء جميعا إحتمال الأذى والقمع حتّى قضى بعضهم. بل نطق بعضهم بكلمة الكفر والقلب مطمئنّ بالإيمان إذ لم يعد يتحمّل التّعذيب. وفضّل بعضهم الآخر الهجرة إلى الحبشة ثمّ إلى المدينة. أخضعوا إلى أشنع حصار إقتصاديّ وإجتماعيّ شامل لثلاث سنوات كاملات في شعب أبي طالب.

من يعرف ماذا تعني الأنفة عند العربيّ والثّأر ونبذ الضّيم بالكلّية والمطلق حتّى لو كان ثمن ذلك رأسه ثمّ يقرأ بنفسه كيف أنّ كلّ تلك القيم العربيّة وضعها الأصحاب في مكّة تحت الأرجل خضوعا لأمر الله سبحانه ولرسوله عليه السّلام فإنّه لا ينفك عن تقرير هذه الحقيقة العظمى. وهي أنّ الإسلام وحده نجح في إعادة تشكيل العقل العربيّ تشكيلا حضاريّا راقيّا يؤثر الصّبر والحلم ويبثّ الأمن والسّلم في وجه من يؤذيه حدبا على رسالة جديدة. تلك هي الثّورة الإسلاميّة الحقيقيّة. وما عداها لا ينسب إلى الثّورة إلاّ مجازا.

ذلك هو التّلقيح النّفسيّ والعقليّ الذي نفذ إلى أفئدة الصّحابة في مكّة إذ لم تسجّل حادثة ثأر واحدة على إمتداد أزيد من عقد كامل. من يقدر على هذا؟ الذين يستجيبون اليوم إلى محاولات جرّهم إلى مربّعات العنف والإرهاب هل يحدّثون أنفسهم أنّهم أحرص على الإسلام من أبناء ذلك الجيل القرآنيّ الفريد وبناته. أم يحدّثون أنفسهم أنّهم أجرأ من الفاروق وحمزة وغيرهم؟ من لم يصبر على ما يحمل في فؤاده من قيم حتّى يملّه الصّبر فلا حاجة للنّاس في دعوته. ولو كتب الله له نصرا لملأ الأرض فسادا ربّما يكون أشنع من الفساد الذي يزعم حربه

حصن الأمّة الأخير: الأسرة والمرأة

سؤال لا فكاك من طرحه لمن يتدبّر بنية النّظم القرآنيّ الكريم. السّؤال هو: لم أجمل القرآن الكريم كلّ شيء تقريبا تحدّث عنه إلاّ ما تعلّق بالأسرة؟ أجمل العقائد وهو يبسطها. وإجمالها سببه أنّ كثيرا من جوانب الغيب لا يتحمّل العقل منه عدا ما لا مناص منه لعبادة صحيحة. كما أجمل العبادات وفوّت للسّنة بتفصيلها وتبيينها. كما أجمل فيما عدا ذلك من مجالات الحياة. إلاّ الأسرة فإنّه فصّل فيها تفصيلا. لم؟ لا أظنّ أنّ الجواب سوى أنّ الأسرة هي الحصن الأخير للأمّة. ومن ذا فإنّ التفصيل فيها مهمّ بسبب أنّ كلّ الحصون الأخرى قابلة للهدم.

وقد طال ذلك الهدم فعلا في تاريخنا وحاضرنا أكثر الحصون العسكريّة والسّياسيّة والقضائيّة والماليّة وغيرها. من شأن التفصيل أن يضمن الإلتزام به من دون إلتفات إلى داعيات إجتهاد أو تجديد. وبذا أعفى الله سبحانه الأمّة كلّها من فريضة الإجتهاد في أكثر شؤون الأسرة. وأبت

الشّريعة إلاّ أن تفصّل فيها تفصيلا محكما لا ينسفه إلاّ شقيّ. العبرة من ذلك هي أنّ الأسرة تظلّ محكومة بترسانة أحكام صحيحة لضمان الحصن الأخير للأمّة. إذ لو إنهدم هذا الحصن الأخير فإنّ ريح الأمّة ذهبت إلى غير رجعة. ومن ذا جاءت سيرته ﷺ ترعى مكانة ذلك الحصن الأخير وتحوطه بكلّ عناية. سيما أنّ المرأة هي عماد ذلك الحصن بسبب قيامها على صناعة الإنسان في بطنها بإذن الله سبحانه صناعة مادية ومعنوية معا. ومن بعد ذلك تصنعه مرّة أخرى في حجرها وصدرها بإذن الله صناعة أخرى. ويظلّ كلّ إنسان جديد كذلك لسنوات طويلات. ذلك لا يتسنّى للزّوج منه إلاّ قليلا. بسبب قيامه على جانب آخر ممّا لا مناص منه للأسرة ولذلك الإنسان الجديد نفسه.

عملت السّيرة على إعادة الإعتبار للمرأة منذ البداية. وكان الإسلام بذلك يقود ثورة وعي عظمى في مجتمع لا يعدّ المرأة عدا سقط متاع بأشنع ممّا تعدّها الحضارة الغربيّة اليوم. من ذلك زواجه من إمرأة تكبره بضعف سنّه تقريبا وهي أرملة ذات ولد ولابثا معها حتّى قضت عليها الرّضوان. لم يكن هذا معهودا في ذلك المجتمع. ولمّا بعث نبيّا توجّه بدعوته إلى المرأة بمثل ما توجّه إلى الرّجل. فآمنت خديجة بمثل ما آمن أبو بكر. وأقبلت سميّة على المقاومة حتّى قضت تحت التّعذيب من دون نكير منه عليه السّلام. سيما أنّ ساحة المقاومة يومها تضمّ زوجها وولدها، أي عائلة بأسرها في يمّ المقاومة. ألم يكن حريّا به ﷺ أن يأذن لإمرأة ربّه بيت أن تعود إلى بيتها وينوب عنها زوجها وولدها في ساحة المقاومة؟ دين يكون أوّل من يقضي فيه شهيدا إمرأة هل يمكن أن يغمز أنّه دين لا يكرم المرأة؟ دين تكون فيه أوّل مؤمن على وجه الأرض إمرأة هل يمكن أن يغمز أنّه

دين لا يقيم للمرأة وزنا؟ ليت شعري. هل من عاقل يستمع إليه النّاس؟ ألم تشارك المرأة في الهجرات كلّها من الحبشة حتّى المدينة؟ ألم تشملها العذابات والحصارات بمثل ما شملت الرّجل؟ دين فيه أسماء التي صحبت الإسلام وهي بنت صغيرة تساهم في أعمال الهجرة حتّى قامت ضدّ سفّاح بني أميّة تعارضه بلسانها وسيفه يخمد الأنفاس. وتقدّم ولدها عبد الله صليبا في مواجهة ذلك السّفاح ذاته. ماذا يقول العاقل عن هذا الدّين؟ لو إنبسط المرء يذكر كثيرا من الأمثلة على مكانة المرأة في حركة التّديّن وإدارة الحياة العامّة والمساهمة فيها فإنّ ذلك يستغرق ما لا قبل لنا به هنا الآن. ولكن لا مناص من ذكر أمثلة بارزة:

منها أمّ سلمة التي نجّى الله بها أمّة كاملة من العذاب بسبب رجحان رأيها في معالجة عصيان الصّحابة لنبيّهم ﷺ في مسألة الحلق أو التّقصير في الحديبية.

ومنها أمّ ورقة التي أذن لها ﷺ بإمامة أهل بيتها ـ أو أهل حيّها بحسب إختلاف في الرّوايات ـ وذلك بسبب رجحان كعبها في القراءة والعلم وعدم توفّر ذلك عند الرّجال من ذلك البيت أو الحيّ.

ومنها عائشة التي برزت في الفقه وناظرت إبن عبّاس وتفوّقت عليه في بعض المسائل. وهي نفسها التي خرجت معارضة سياسيّة ضدّ الإمام عليّ إجتهادا منها ومن بعض الصّحابة في واقعة الجمل المعروفة.

ومنها أمّ هانئ التي تولّت إجارة مشرك ـ أو مشركين ـ في فتح مكّة فقها منها وعلما. وكان يمكن أن يعدّ ذلك من رئيس الدّولة الفاتح عليه السّلام إفتئاتا على صلاحيات الدّولة. ولكنّه عدّه عملا صالحا وزكّاه مشجّعا.

ومنها حفصة التي أجمع الصّحابة على إستئمانها على أوّل كتاب للقرآن الكريم في عهد عثمان. ومنها مشاركة المرأة في الجهاد والمقاومة دون المدينة ومن فيها جنبا إلى جنب مع الرّجل. إذ لم تخل واقعة واحدة تقريبا من مشاركة للمرأة. ومنها تفهّمه ﷺ لما شغب على عائشة وحفصة عليهما الرّضوان في إثر ما وقع ذكره في سورة التّحريم التي نزلت بسببه. أي شعورا غريزيّا طبيعيّا بين النّساء الضّرّات. ومنها تفهّمه ﷺ لحركة أزواجه المطالبات بالتّوسّع في الإنفاق. ومنها محاورته لخولة في ظهار شغب به زوجها عليها ونزل بذلك وحي يتلى إلى يوم القيامة. وفيه تشديد على حرمان المرأة من حقّها الجنسيّ وترتيب لكفّارات مغلّظة على المظاهر.

ومنها تفهّمه كذلك مرّة أخرى لما وقع بثّه في المدينة كلّها أيّام الإفك. إذ ظلّ مؤمنا بطهر زوجه حتّى برّأها الله سبحانه من فوق سبع سماوات. وغير ذلك من المواقف والمشاهد التي يقصد منها إعادة الإعتبار لمؤسّسة الأسرة بعمادها الأكبر. أي المرأة التي تتحمّل مسؤولية الشّراكة كاملة في بناء الأسرة وإدارتها ومعالجة مشكلاتها وفي حركة التّديّن نفسها وفي كلّ الحقول والمجالات دون تمييز بين بيت ورعاية ولد من جهة وبين مساهمة في رعاية المجتمع والمقاومة دون غزوه من جهة أخرى. ولكن بتوازن وإعتدال قوامه التّكامل بينها وبين الرّجل شريكها سواء في البيت أو في المجتمع والدّولة.

إحتاج كلّ ذلك إلى صبر ومصابرة وبثّ وعي جديد. بل إلى ثورة قيميّة تشقّ طريقها إلى الصّدور يوما من بعد يوم. الحكمة من كلّ ذلك هو أنّ الأسرة هي مضغة المجتمع الأولى ونطفته الحيّة. فإذا صلحت صلح المجتمع. وإذا فسدت فسد المجتمع. وأنّ المرأة شريك في تلك المسؤوليّة شراكة كاملة

بتعليم من الله نفسه سبحانه. وأنّ الحضارات العظمى لا تقوم بغير ذلك. السّؤال الموغل في الحرج لنا جميعا ـ إلاّ قليلا ـ هو : أين نحن من ذاك؟ قال الشّاعر: الصّمت أولى

تربية العقول على التّشديد في العزائم والتّيسير فيما دونها

ذاك هو منهج النّبوّة الذي تشرّبه الصّحابة الكرام عليهم الرّضوان. الأمثلة لا تحصى. منها ما ورد في سورة التّوبة من تشديد وتشنيع على الصّحابة الذين تخلّفوا عن تبوك. عددهم ثلاثة فحسب. وهي واقعة لم تشهد نزالا مع الرّوم الذين فرّوا. ومع ذلك فإنّ العقوبة كانت قاسية. إذ قوطعوا مقاطعة شاملة لم يندّ عنها حتى إفشاء سلام أو ردّه ولمدّة كادت تصل شهرين كاملين. بل إنّ أزواجهم أمرن ـ هنّ أيضا ـ بمقاطعتهم في آخر تلك المدّة. ما معنى ذلك وعددهم لا يكاد يذكر ولم تشهد الواقعة قتالا أصلا؟ ذلك يعني أنّه يريد أن يربّيهم ﷺ على حرمة الشّأن العامّ. سيما إذا تعلّق الأمر بأمن الدّولة ومن فيها. في مناسبات كثيرة دفع الإسلام بأبنائه وبناته إلى القتل والموت لأجل حماية الدّولة التي تحمي هي بدورها منافقين وأهل كتاب وغيرهم ممن إعتصم بالدّولة وأعترف بها وفضّل البقاء على دينه أو على لا دينه أصلا.

هذا معنى مهمّ كثيرا ما نغفل عنه نحن اليوم. إذ نظنّ أنّ المقاومة كانت تحمي المسلمين فحسب. والحال أنّ المدينة يقطنها غيرهم. والدّولة مسؤولة على أمنهم وحمايتهم وهذا ما قامت به. ألم يكن من الأولى غضّ الطّرف عن رجال من الصّف الأوّل ما تخلّفوا عنوة ولا خيانة ولكن حبستهم تسويفات تغشى كلّ إنسان؟ لا. بل كانت العقوبة قاسية. بل هي الأقسى.

وهل أقسى من أن يشهد أولئك الثّلاثة صلوات الجماعة كلّ يوم فيفشون سلاما لا يسمعون صداه؟ الحرّ ـ كلّ حرّ ـ يجد من هذه العقوبة القاسية في فؤاده ما لا يلقاه غيره من تعذيب بدنيّ. مثل ذلك غضبه ﷺ على أبي ذرّ إذ عيّر بلالا بسواد بشرة أمّه. كان يمكن أن يعدّ ذلك زلّة لسان. سيما أنّ المناخ مناخ خصومة بينهما. ومن منّا لا يغضب؟ لا.

لمّا كان الأمر متعلّقا بالإنسان وكرامته فإنّ غضب الحليم يسبق عفوه. وهل أحلم منه ﷺ. ومثل ذلك لمّا تخلّف بعض المسلمين سرّا في مكّة عن الهجرة إلى المدينة وهم قاردون على ذلك. نزل فيهم وعيد شديد في سورة النّساء. ولم يكن ذلك التّشديد عليهم والنّكير سوى لأنّ تعريض النّفس للإكراه وصاحبها قادر على تحريرها منه أمر كبير لا يغفر.

الأمر متعلّق بالإنسان مرّة أخرى. من يتجشّم اليوم نازلة العصر ليكتب ويتحدّث ويسمع النّاس أنّ الإنسان وحرّيته وكرامته في الإسلام محلّ تشديد ومحطّ نكير لمن داسه؟ تلك أولويّة القلم في نظري وأولوية اللّسان إذا كنّا نفقه فعلا معنى الأولويّات والمراتب. ذلك أولى ألف مرّة ومرّة من الحديث عن إستواء الله على عرشه لتنشأ بيننا حروب.

وفي مقابل تلك التّشديدات عالج الإسلام غيرها باليسر والواقعية والإعتراف بالقصور. الأمثلة هنا كذلك لا تحصى. منها أنّه لا حرج على المريض ولا على الأعرج ولا على الأعمى ومن في حكمهم قصورا. لم يتردّد عليه السّلام أن قال لمن نطق بكلمة الكفر تحت التّعذيب وقلبه بالإيمان مطمئنّ (إن عادوا فعد). ولم يتردّد بمثل ذلك ﷺ أن زكّى إجتهاد أصحابه المختلفين في صلاة العصر في الطّريق إلى بني قريظة رغم إختلاف تلك الإجتهادات.

ولم يتردّد ﷺ في تزكية إجتهاد أصحابه المختلفين في إعادة صلاة أدّوها بطهارة حكميّة ـ كما يقول الفقهاء أي تيمّما ـ إذ وجدوا ماء رغم إختلاف إجتهاداتهم. ولم يتردّد ﷺ في أن يزكّي عشرات الحجّاج من أصحابه في حجّته الوحيدة معهم أن يقول لكّل سائل منهم (إفعل ولا حرج) معلّما إيّاهم أنّ إتمام أركان الحجّ كفيل بجبر ما قصروا عنه غفلة أو نسيانا. أو حتّى جهلا. ولم يتردّد ﷺ في الجمع بين الصّلوات التي يمكن الجمع بينها مرّتين أو ثلاث بدون عذر من مطر أو خوف أو ريح معلّما إيّاهم ـ كما أخبر حبر الأمّة النّاس من بعد ذلك ـ اليسر. ولم يتردّد ﷺ في شرب الماء في الطّريق إلى مكّة فاتحا في أيام رمضان بسبب العطش الشّديد وهو فوق ناقته ليعلّم النّاس يسر الدّين. بل غضب ﷺ على نفر قليل من أصحابه الذين ظلّوا رغم ذلك ممسكين وقال عنهم (أولئك العصاة. أولئك العصاة. أولئك العصاة). ولم يتردّد ﷺ أن يقول للأعرابيّ الذي لم يسبق له علم ببعض الأذكار التي حفظها الصّحابة (دندن كما تدندن). معلّما إيّاه وإيّانا جميعا أنّ العبرة ـ عند عدم العلم ـ بحضور القلب

تربية العقول على ثقافة التّدرّج

هذا أمر مشهور معلوم في شريعة الإسلام. من ذلك أنّ الشّريعة العمليّة كلّها ـ بل حتّى التّعبّديّة في جزء كبير منها ـ تأخّر نزولها حتّى أمن النّاس أذى النّاس في مكّة. ليعلّم النّاس أنّ الأمن شرط مشروط للعبادة وتنفيذ تعاليم الدّين. وأنّ العدل مثل ذلك. وهو الأمر الذي إلتقطه الأصحاب عليهم الرّضوان من بعد موته ﷺ إذ علّقوا العمل ببعض الأحكام عند غلبة الظّنّ أو التّحقّق من عدم إفضائها إلى محالّها بسبب غياب شرطي الأمن والعدل

بين النّاس. كما تأخّر نزول تشريعات كثيرة رعاية لتشرّب العقول لحكمة الدّين الجديد وتهيّؤ المناخات ولم يكونوا مؤاخذين وهم يعملون بغير ذلك قبل ورود ما ينسخه أو يبيّنه.

تأخّرت تشريعات حرمة الرّبا إلى آخر أيّام أيّام العهد النّبويّ كلّه. ومثل ذلك حرمة الخمر وإختمار النّساء وفرض الحجّ وحرمة التّبنيّ وتوسّل إلى تشريعات أخرى بسياسة تجفيف المنابع من مثل ما جرى مع الرّقيق. وغير ذلك كثير. وكلّ ذلك ليتعلّم النّاس أنّ التّدرّج في التّنفيذ مطلوب عندما لا تكون المناخات مهيّئة لقبوله. لم يكن ذلك ـ ولن يكون اليوم ـ إتّباعا لهوى أو خوفا من النّاس ولكن كان ذلك ـ ويكون اليوم ـ مراعاة لطبيعة الإنسان في أبعاده الفرديّة والجماعيّة. إذ أنّ ما ألفه النّاس ـ بغضّ النّظر عن صلاحه من طلاحه ـ على إمتداد سنوات أو عقود لا يتغيّر بالأمر المجرّد فحسب

تربية العقول على ثقافة التّراضي والتّشاور

لا تكاد تظفر في السّيرة بواقعة عسكريّة واحدة إلاّ وفيها من مشاهد تشاوره مع أصحابه الذي فيها. غنيّ عن القول أنّ منبع ذلك هو القرآن الكريم الذي عدّ ذلك عزيمة من العزائم العظمى المغلّظة. وليس نافلة فعل أو قول. جاء الإسلام يعدّ ذلك ثقافة وليس وسيلة فحسب. أو إجراء إداريّا. ثقافة تتشبّع بها الأسرة والمجتمع. فإذا إنبجست من ذلك المجتمع دولة فإنّ المصطفين لقيادة النّاس لن يكونوا عدا من التمتشبّعين بثقافة التّشاور والتّراضي. جاء القرآن الكريم نفسه يلزم محمّدا نفسه عليه السّلام بالخضوع لشورى النّاس. ولم يتردّد أن نفّذ ذلك ﷺ. إذ خضع

لشوراهم خضوعا لله سبحانه حتّى وهو على غير رأي تلك الشّورى. كما وقع في عدوان أحد. هل بعد هذا من كلام يتمحّل تمحّلا وضيعا يحاول به صاحبه إقناعنا أنّ الشّورى معلمة لا ملزمة؟ أليس الكفر بها هنا أولى؟ بين الكفر بها وبين تفريغها من حكمتها كمثل البون بين مشرك ومنافق. لا أرب لي في ذكر كلّ المواقع التي بادر فيها ﷺ لمشاورة أصحابه. لأنّها كثيرة. وشملت الصّغائر والعزائم وحالات السّلم والأمن معا والمرأة والرّجل معا. ولو لم يشاور ﷺ لكان رأيه هو الرّأي الأرجح بسبب ما عرف عنه ـ من قبل النّبوّة ـ من رجحان رأي وسداد عقل فكيف وقد أغدق الله عليه بحسنى النّبوّة؟ بلغ به الأمر مع التّشاور أن قال لصاحبيه الأكثر قربا ـ أبي بكر وعمر ـ في شأن أسرى بدر إذ إختلفا في الرّأي (لو إتّفقتما على رأي ما خالفتكما). إن قلت هو تواضع النّبوّة فقد أصبت. وإن قلت هو ترسيخ ثقافة التّشاور وفقه التّراضي فقد أصبت أيضا.

تربية العقول على ثقافة الإعتراف بالإختلاف

مزيّة أخرى تزخر بها سيرة هذا النّبيّ الكريم العظيم. ومرّة أخرى يبيّن محكمات القرآن الكريم تبيينا يشفي الغليل قولا وعملا. والعمل هنا أشدّ تربية. هل علم النّاس أنّ الله سبحانه حرّم على نفسه إكراه أيّ من عباده من الإنس والجنّ تكريما وتفضيلا على الدّين الحقّ الذي إرتضاه هو بنفسه لهم؟ هل نعلم أنّه هو نفسه سبحانه من خيّرنا بين الإيمان والكفر ووهبنا منحة وفضلا وتبجيلا حقّ إعتناق أيّ منهما بدون أيّ إكراه منه هو سبحانه ولو شاء لأكرهنا على ذلك؟ عدا أنّه مع ذلك التّحرير الأعظم من ربقة الإكراه حتّى لو كانت متأتّية منه هو نفسه سبحانه بيّن لنا فضل

الإيمان وفضل الطّاعة وسوء عاقبة الكفر. وحمّل كلّ واحد منّا مسؤولية إيمانه أو كفره. فهو وحده من يتحمّل مسؤولية ذلك يوم القيامة كاملة غير منقوصة. ليت شعري. إذا كان الله سبحانه يتفضّل علينا بذلك التّكريم ـ وهو قادر على إكراهنا كما أكره كلّ مخلوقاته التي تعبده كرها بما فيها ملائكته الكرام ـ فكيف لا نستنبط من ذلك أنّه يريد أن ينحت عقولنا على ثقافة الإعتراف بالإختلاف وفقه التّنوّع وسنّة التّعدّد؟ عندما تعود بالأمر إلى أصله الآصل فإنّك لا تحتاج معه إلى شيء أصلا. إذا كانت العلاقة بيننا وبين الله سبحانه ـ وهو من هو ـ هي علاقة إختيار لا إكراه فيها فكيف تكون العلاقة مع غيره ومن هو دونه؟ أوليس كلّ من عداه هو دونه سبحانه؟ لم لا نحتكم إلى ذلك الأصل الآصل لنعيد نحت عقولنا على أساس كرامة الإنسان وحرمته وحقّه في إختيار ما يريد وألاّ سلطان عليه إلاّ إذا أفسد أو تعدّى حدوده فظلم وبغى وطغى؟ ربّى أصحابه ﷺ وفق تلك الثّقافة. فنشأ في حجره الكريم النّاس مختلفين في نظراتهم. وكأنّهم لم يرضعوا من حلمة واحدة. فهذا إبن عمر ينهج نهجا في الفهم والإفتاء والتّفقيه. وهذا صنوه رضاعا وتربية وحجرا إبن عبّاس ينهج نهجا آخر. وهذا أبو ذرّ ينهج في الدنيا نهجا. وينهج إبن عوف فيها نهجا آخر. وهذا أبوبكر في إدارة الدّولة ينهج نهجا. وينهج الفاروق نهجا آخر. وغير أولئك كثير. ومشاهد أخرى كثيرة تدلّ أنّه ﷺ كان يحرص حرصا عجيبا على تربية النّاس ثقافة الإختلاف والإعتراف به وقبوله وعدم النّكير من أحد على أحد. إلاّ إذا تعلّق الأمر بالشّدائد والعزائم والمحكمات فإنّ الأمر يتطلّب علاجا قاسيا. حتّى عندما يتعلّق الأمر بالرّدة الفردية السّلمية. إذ أخرج البخاريّ عن جابر أنّ أعرابيا بايعه ﷺ ثمّ أصابه وعك بالمدينة. فقال له:

أقلني بيعتي. وظلّ يطلبه بإقالة بيعته ثلاثا. ثمّ خرج من المدينة. فقال ﷺ: إنّما المدينة كالكير تنفي خبثها وتنضح طيبها

تحصين الأمّة بالقوّة العلميّة والفكريّة

علمّ النّاس منذ البداية أنّ الأمم تبنى بالعلوم والمعارف وإجتباء الحكمة وإجتناء الرّشد وليس طيشا وحدّة وإمّعيّة أو إتّباعا أعمى. من ذلك أنّه ﷺ جعل ثمنا للمنّ على أسرى بدر أن يعلّم كلّ واحد منهم عشرة من أصحابه القراءة والكتابة. لا شكّ أنّه يتأوّل بذلك الأمر الأوّل الذي نزل عليه وهو في غار حراء وحيدا يتحنّث ناظرا متدبّرا في ملكوت ربّه سبحانه. لا شكّ أنّه ﷺ أحسن إستيعاب ذلك كلّ الإستيعاب. لا شكّ أنّه ﷺ أراد أن يبيّن للأمّة تبيينا بالعمل قيمة ذلك الأمر الأوّل الأعظم (إقرأ). وقيمة القلم الذي نزلت به سورة هي الثّانية ربّما في التّرتيب أو الثّالثة فكانت هي الثّورة العظمى في الحياة العربيّة القائمة على قلم السيّف الذي حصد منهم رجالا ونساء وشبابا لأتفه الأسباب أحيانا.

ومن ذلك أنّه أرسل صاحبه زيدا بن حارثة ليتعلّم لغة السّريانيّة. ومن ذلك أنّه أمر أصحابه بأنّ يقوموا بإحصاء عمرانيّ شامل جامع لسكّان المدينة. وهو الإجراء الأوّليّ لمن يريد بناء خطط في مستوى التّحدي الذي يروم منازلته. دون ثنائه على أهل العلم والمعرفة أيّما ثناء. إذ أشار على النّاس بإناطة عباداتهم بالشّمس تارة وبالقمر تارة أخرى حتّى يكونوا أهل تحضّر وترقّ وتمدّن. أليس التحضّر هو حضور الزّمان وشهود المكان والتّعويل على ملاحظات منافذ العلم فينا. أي الأسماع والأبصار والأفئدة؟ إنّما الحضارة الحضور. وهل غاب ركز الأمّة إلاّ عندما غابت عن شهود

الزّمن وملاحظة تغيّراته؟ إنّما الحضارة ملاحظة المتغيّرات من زمان ومكان وحال وعرف وغير ذلك. ومن ذا إرتبطت الحياة الدّينيّة نفسها في الإسلام بشهود الزّمان وحضور المكان شمسا وقمرا وغير ذلك.

لم يربّهم ﷺ على العلم فحسب. إنّما ربّاهم مع ذلك على التّفكير والإجتهاد. وبالغ في ذلك حتّى أثيب المجتهد المخطئ. ولكم أبدع العلماء الذين قالوا أنّ خطأ المجتهد أحبّ إلى الله سبحانه من إصابة المقلّد. وهل يخطئ مقلّد؟ كان كلّما عرض عليه إجتهاد جديد من أصحابه إلاّ وردّ عليهم بعبارات التّشجيع. وليس بمجرّد التّزكية فحسب. كان ذلك عندما بادروا بعلاج لديغ بسورة الفاتحة إجتهادا منهم لم يسبقوا إليه. وعندما أجارت أمّ هانئ بعض المشركين. لم يزكّ رجالا دون نساء ولا شيوخا دون شباب. لا بدّ من التّمييز بين العلم وبين الفكر. أو بين العلم الشّرعيّ وبين الموقف الشّرعيّ كما يقول الدّكتور المختار الشّنقيطيّ. توفّر العلم ممكن. لأنّه معطيات وسماعيات وإخباريات تلتقطها منافذ العلم فينا من سمع وبصر وفؤاد. هذا ممكن لكلّ طالب وبدون جهد غير محتمل. إنّما غشينا الإنحطاط عندما قصر همّنا على العلم تاركين فرائض النّظر والتّفكّر والتّدبّر. ذلك هو الذي جعل حبرا مثل إبن عبّاس يبرغ نجمه. وجعل العلماء من حوله يخلعون عليه أسمى الألقاب. من مثل لقب الحبريّة أو ترجمان القرآن. وذلك هو الذي جعل الصّحابة عليهم الرّضوان يخالفون بعض فتاويه وإجتهاداته ﷺ فيما هو مؤهّل لذلك وقابل له. أي الحقل الدّنيويّ. حتّى لو كان أشدّ إلتصاقا بالدّين. من مثل عدد مرّات الأذان في صلاة الجمعة. والأمثلة لا تحصى ولا تعدّ هنا ولا فائدة من ذكرها

تغذية النّفوس بثقافة الإستيراد وتوقير القامات

كما ربّاهم ﷺ على حسن التّمييز بين أمرين : أمر دينيّ موقوف ثابت راسخ هو أمر الدّين الذي لا يتغيّر ولا يتبدّل ولا يتطوّر. وأمر الدنيا التي تخضع للتّغيّرات. ومن ذلك لم يتردّد ﷺ في إستيراد معارف وعلوم من غير العرب والمسلمين بغرض إستخدامها. الأمثلة كذلك كثيرة. منها إتّخاذه الخندق لحماية المدينة. وهو علم من علوم الفرس الحربيّة. نقله سلمان عليه الرّضوان. ومنها إتّخاذه الخاتم لكتبه مع رسله إلى السّلاطين. وهو علم من علوم الرّوم الإداريّة والسّياسيّة. وفي سياق إستيراد الصّالح والنّافع من تلك الإدارات علّم النّاس ثقافة توقير القامات البشريّة.

الأمران يندرجان في السّياق ذاته. وهو سياق التّوقير والتّقديم لقيمة مهمّة وتأخير أخرى مذمومة. من ذلك أنّه علّمهم توقير حاطب إبن أبي بلتعة إذ أفشى بدون قصد سرّ فتح مكّة. ونزلت في ذلك سورة مدنيّة كاملة هي سورة الممتحنة. كان إتّجاه الصّحابة ينحو نحو قتله بحسبانه خائنا. ولكنّه علّمهم عليه السّلام فضل السّابقة. إذ الرّجل مهاجر وبدريّ معا. وهو مع ذلك ليس خائنا إنّما مجتهد مخطئ. ومثله مرّ بنا مع أبي سفيان. ومثل ذلك مع خالد إبن الوليد الذي أسلم متأخّرا من بعد أن حصد بسيفه وبجنده رقابا من الصّحابة. ما إن أسلم عليه الرّضوان حتّى إلتقطته العناية النّبويّة فأحتضنه ﷺ وأمّره على جيوشه لغرضين كلاهما قيمة عظمى. غرض ردّ الإعتبار لرجل أسرف على نفسه كثيرا. وهي فرصة له ليكفّر عمّا فعل. إذ الإسلام يجبّ ما قبله. كما قال هو نفسه ﷺ. وعندما تتاح لرجل تائب مثل هذه الفرصة فإنّه سيبلو كلّ بلاء حسن. وهو ما فعل عليه الرّضوان حتى

أغدق عليه ﷺ بخير لقب. إذ سمّاه سيف الله المسلول. وغرض الإفادة من خبرات عسكرية وتجارب حربيّة لدى هذا السيّف الذي نقله الله سبحانه من الشّيطان إلى الرّحمان. كان يمكن أن يظلّ خالدا رجلا في المؤخّرة بما قد يصيبه من أذى بسبب ماضيه. وهو ما قد يفضي إلى ردّته أصلا.

رعاية هذا النّبيّ الكريم العظيم للنّفوس في الحقيقة وللمنصفين شيء يفوق التّصوّر. بل هو مدرسة في المعالجات النّفسية ورعاية النّاس وتغذية العقول بالقيم العظمى. ومن ذلك أنّه نهى الصّحابة أن يذكروا عدوّ الله أبا جهل بسوء كلّما كان ولده عكرمه من بعد إسلامه معهم. ولمّا مات رأس النّفاق ذاته أبى إلاّ أن يكفّنه ﷺ ببردته. لأيّ شيء؟ لا أحد يمكن أن يحيط بذلك كلّ الإحاطة. وربّما تثبيتا لفؤاد إبنه المسلم. لك أن تتصوّر فؤاد ولد مسلم وأبوه هو رأس النّفاق وليس منافقا فحسب. لا شك أنّ رأس النّفاق على كلّ لسان من ألسنة الصّحابة ذكرا بسوء. فلا مناص إذن من تكريم ولده بذلك. وقيم أخرى لا يحصيها حاص من هذه المدرسة النّبويّة العظمى. توقير القامات بغضّ النّظر عن دينها ما لم تكن محاربة فيه منافع كثيرة ومصالح أكبر. ذلك أنّ النّاس كما قالت العرب على دين ملوكهم. وليس في ذلك الزّمان فحسب بل في غيره كذلك. وأنّ النّاس ينقادون لكبرائهم في العادة وأنّ وجود الزّعامات في النّاس قليل سواء في الكفر أو في الإيمان لقوله ﷺ (النّاس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة). ومن ذا فإنّ معاملة النّاس تمييزا لهم بين مكاناتهم ليس نفاقا أو خوفا أو طمعا أو ضعف دين كما يريد أن يعلّمنا إيّاه الأغرار. إنّما هو سياسة حكيمة وحصافة ورشد وتوسّل إلى القلوب بأدنى المفاتيح. نحن ورثنا ثقافة أخرى سيّئة ويا للأسف الشّديد

تحصين الأمّة بالقوّة الماليّة والإقتصاديّة

مبتدأ هذا هو قوله عليه السّلام (نعم المال الصّالح للعبد الصّالح). وقوله كذلك عليه السّلام لمن أراد أن يوصي بماله كلّه أو كثير منه (الثّلث. والثّلث كثير). وثناؤه ﷺ كثيرا على عثمان الذي سخّر ماله لتجهيز الخروج إلى تبوك. إذ قال له ما يرجو كلّ مؤمن بالله واليوم الآخر حقّا أن يكون له منه نصيب (ما ضرّ عثمان الذي فعل بعد اليوم). ومثل ذلك لأبي بكر الذي قال عنه (ما لأحد عندنا من يد إلاّ وكافيناه ما خلا أبابكر). وما ذلك سوى لأنّ الرّجل وضع نفسه وماله وأسرته بالكلّية وبنيه ذكورا وإناثا على ذمّته ﷺ في ساعات الهجرة الأولى التي تتطلّب مالا وكتمانا وشهامة ومروءة عزّت وعزّ أهلها. كلّ ذلك وغيره مبتدأ هذا الأمر. إذ هو يعيد بناء العقل المسلم على أساس أنّ (المؤمن القويّ خير من المؤمن الضّعيف وفي كلّ خير) كما قال هو نفسه ﷺ في موضع آخر.

ومن ذلك أنّه ﷺ أذن للنّاس في بيع السّلم أوّل مقدمه المدينة. وذلك عندما أخبر أنّ ذلك هو المنوال الإقتصاديّ الذي تجري عليه المعاملات أو بعضها بالرّغم من أنّه خلاف الأولى. عدا أنّه قيّده بتقييدات تضبطه أن يتذرّع به النّاس أو بعضهم إلى الرّبا أو إلى إستغلال حاجة النّاس إجحاقا وجورا وحيفا سيما أنّ القوّة الإقتصادية في تلك الأيّام هي بلا منازع مرجعها إلى الطّائفة الإسرائيلية في حين أنّ عرب الأوس والخزرج ظلّوا يعيشون حالة ليست بعيدة عن حال الإسترقاق في ظلّ ذلك التّبرّج الإقتصاديّ لتلك الطّائفة.

كما أنّه ﷺ أقرّ صاحبه إبن عوف الذي إستثمر مؤهّلاته التّجارية عند مقدمه إلى المدينة مهاجرا فظلّ يضارب في الأسواق حتّى غدا من أكبر

تجّار المدينة. كلّ ذلك يوحي بأنّ المطلوب من الأمّة الإسلاميّة ـ والوجود الأوروبّيّ المسلم جزء منها لا يتجزّأ ـ أن تنشد كلّ أسباب القوّة المالية والإقتصادية الممكنة تحت سقف الإسلام ووفق شريعته. ذلك أنّه لا معنى لأن تكون أمّة العلم والقوّة والهداية من دون ذلك أو بعض منه أو ما تيسّر. عدا أنّه لا مناص من القول ـ وبدون أي إحتراز متمحّل ـ أنّ قوّة الوجود الأوروبّيّ المسلم هي قوّة لأوروبا نفسها وشعوبها ومجتمعاتها ودولها. وهذا مطلوب منّا دون ريب بسبب ولائنا ـ في وجه منه ـ لأوروبا. وليس هي قوّة موازية أو قوّة تصرف لولائنا العقديّ ـ أي الأمّة الإسلامية ـ ولا تصرف لولائنا الوطنيّ

تربية الأذواق بفنون الزّينة والجمال

يمكن لنا أن نسمّي هذا قوّة عاطفية ذوقيّة نحن في أمسّ الحاجة إليها بسبب إزدواجية تركيبنا المعروف. سرت فينا سنّة سيّئة خاطئة ببضاعة علمية مزجاة قوامها أنّ العاطفة شيء سيّء وأنّ الفنون والجمال والزّينة ليست بعيدة عن رجس الشّيطان. وما ذاك سوى لإرتباط جزء منها في العقود الأخيرة بالفساد الذي زكّته الأنظمة السّياسية الفاسدة وجلبت عليه بخيلها ورجلها. ولكنّ التّمييز بين الأشياء من علامات نباهة طالب العلم ودقّته. من مظاهر تزكيته ﷺ لقيم الفنون والجمال والزّينة ـ فضلا عمّا ورد فيها في الكتاب العزيز مفصّلة آياته ـ خروجه هو نفسه ﷺ من بيته في مظهر جميل أنيق يفيض زينة ورونقا رغم قلّة الإمكانيات كما هو معروف في تلك الأيّام. ولكنّ التجمّل والتّزيّن ليس إمكانيات مادّية ولكنه إمكانيات عقليّة وعاطفية وذوقيّة. إذ كان يحرص على ذلك كلّ الحرص ويربّي عليه أصحابه.

ومن ذلك أنّه يغضب كلّما رأى أحدهم ثائر الرّأس حتّى إنّه منع من شهود صلاة الجماعة والجمعات والأعياد من أكل بصلا أو ثوما. وما ذلك سوى لأنّه يؤذي النّاس. ألهذا الحدّ وصلت العناية النّبويّة بقيم الجمال والزّينة وتكريم الإنسان؟ أجل. ولكنّ قليلا منّا من يعلم ذلك أو يقيم له وزنا حتّى مع علمه إيّاه.

كانت عائشة عليها الرّضوان ترجّل له شعره وتدهنه. وكان يصحب معه مرآته ولا يدع التّطهّر وتنظيف الأسنان التي قال فيها (لولا ان أشقّ على أمّتي لأمرتهم بالسّواك في كلّ صلاة). أجل. تلك هي عنايته ﷺ بالجمال والزّينة. إذ كاد أن يكون تنظيف الأسنان ـ بأيّ وسيلة ـ شرطا من شروط الصّلاة. كان عائدا ذات يوم من معركة حامية فاعترضت سبيله إمرأة تقول له : إنّي نذرت لله أن أضرب بين يديك بالدّف إذا رجعت سالما فأذن لها. هل تصدّق هذا؟ نحن نصدّقه ولكن لا نريده. لم؟ هكذا تربّينا ونشّئنا. إمرأة تضرب بين يديه بالدّف وهو نبيّ؟ هو عجيب غريب علينا. ولكن ما العمل؟ طاعته تسليما ورضى أم نشوزا يفضي إلى ما لا تحمد عقباه عند الله سبحانه؟ أخبر بزفاف لبعض الأنصار فأشار على بعضهم أن يحيوا الحفل بما يناسبه من فرح وبهجة قائلا (إنّ الأنصار قوم يعجبهم اللّهو). في إشارة إلى ما نشأ عليه المهاجرون في مكّة بخلاف ذلك. كان يصحب زوجه عائشة في كلّ مناسبة يحيي فيها الأحباش مهرجانهم السّنويّ في مسجده الكريم بالمدينة بمثل ما ألفوا من رقص ولعب وغير ذلك. هنا هو يبتغي مرضاة أزواجه ﷺ وهي هنا إسترضاء مطلوب محبوب مرغوب. وينهر أبابكر وعمر كليهما أنّهما زجرا بعضهنّ في يوم عيد إذ يلعبن ويمرحن في بيته وقال لهما : إنّه يوم عيد.

نبيّ يعلّمنا أنّ العاطفة غذاؤها اللّعب واللّهو والمرح والطّرب والغناء والحداء وغير ذلك من أسباب الفنون والجمال والزّينة كما يتغذّى العقل بالمعادلات الذّهنية وتتغذّى النّفس بالإخبات لربّها والتّبتّل وكما يتغذّى البدن بالطّعام والماء. نبيّ يعلّمنا أنّ النّفوس تكلّ وتملّ فلا مناص من تغذيتها بما هي إليه جوعى وظمأى. نبيّ يعلّمنا مراعاة تغيّر الزّمان والمكان والحالا والعرف وغير ذلك. نبيّ يعلّمنا فقه اليسر وثقافة الواقعية. نبيّ يعلّمنا التّوسّط في كلّ ذلك. نحن اليوم في زمن آخر ومكان آخر وعلينا فقه كلّ ذلك تحت سقف الإسلام وشريعته وفوق أديم الفطرة وخليقتها. أمّا التّشدّد ـ كما يقول سفيان الثّوريّ ـ فيحسنه كلّ أحد

إحتضان المسلمين الجدد وإنزالهم منازلهم

هذه قضية مطروحة علينا نحن اليوم نعالجها ـ ولا مناص لنا من معالجتها ـ بمثل ما عالجها هو نفسه ﷺ. النّاس يختلفون في ذلك كما تختلف حالاتهم وظروفهم في ذلك كذلك. من ذلك أنّ القرآن الكريم نفسه ميّز بين الإيمان والإسلام في سورة الحجرات المدنيّة. فمن النّاس ـ حتّى اليوم ـ من يسلم لسبب ما ولكنّ الإيمان لمّا يدخل قلبه. ومنهم من يؤمن منذ البداية بقوّة. والحديث طبعا ليس عن النّفاق والمنافقين. إنّما عن المؤمنين وإختلاف طرائق دخول الإيمان إلى قلوبهم. رجل مثل أبي سفيان ـ بسب ما نشأ عليه من أبّهة وعلويّة وسيادة وقيادة ـ أسلم عندما رأى بعينيه قوّة محمّد العسكريّة ﷺ وهو على تخوم مكّة في أيّام فتحها. ظلّ العبّاس عليه الرّضوان يرافقه في تلك المهمّة ويجعله يبصر بعينيه تلك القوّة العسكرية المنظّمة المرتّبة ترتيبا عصريا فتسلّل الإيمان إلى قلبه بإذن الله.

كان إحتضانه من لدن النّبيّ ﷺ مختلفا عن صور أخرى من الإحتضان. إذ رعى فيه مكانته ومنزلته وأنزله ذلك متخوّلا إيّاه بالتي يحبّها. وأيّ مانع من ذلك؟ وقد مرّ بنا كذلك ما فعل مع خالد الذي إحتضنه إحتضانا آخر قام على تقدير منزلته السّالفة وأنزله إيّاها كلّ الإنزال من دون أن ينقص منها شيء.

رسالة أخرى تعلّمنا هذا الفقه النّبويّ العظيم في مشهد يحسن قراءة النّفوس كلّ الإحسان. كان مع الأعرابيّ ﷺ يكتفي بما أوحي إليه من قواعد الإيمان والإسلام. فلا يثقل كاهله ولا يحمّله ما يحتاج إليه الحضريّ الذي يشهد الجماعات والجمعات والأعياد وحلقات العلم. حتّى قال في أحدهم (أفلح وأبيه). الأعرابيّ لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه غيره. سيما أنّه حديث عهد بجاهلية وإسلام معا فلتكن النّقلة صحيحة وعميقة من جانب ولكن سلسة رتيبة مرنة من ناحية أخرى.

رأيناه ﷺ كيف عامل هندا التي بقرت بطن عمّه سيّد الشّهداء حمزة في أحد ومضغت كبده في مشهد هو الأشدّ قرافة. بايعها كما بايع كلّ النّساء وإستمع إليها وهي تقول : وهل تزني الحرّة؟ وأمثلة أخرى رسالتها هي أنّ إحتضان المسلم الجديد فنّ من فنون الإستقبال ومهارة من مهارات الإجتماع بالنّاس وشطارة وحكمة وحسن قراءة في النّفوس المتقلّبة بما يجعلها مقبلة لا مدبرة ومستبشرة لا جزعة وآملة لا قانطة ومشرئبّة إلى قابلات سعيدة لا ملوّثة بغابرات لئيمة. هذا فقه لكم نحن اليوم بحاجة ماسّة إليه. لعلّنا نؤخّر حروبنا على الكلاب التي هي عملة من عملات هؤلاء لا يستغنون عنها ـ إن إستغنوا ـ بين عشية وضحاها وعن كثير من مثل ذلك ممّا ألفوه فأضحى فقرة من فقرات حياتهم

الباب الثّالث:

التّطبيقات الأوروبّيّة الممكنة

الإعتراف بالنّظام العامّ من مختلف جوانبه

إستنارة بالسّيرة وبما أنف قوله فإنّ أولى التّطبيقات في واقعنا الأوروبّيّ هي الإعتراف بالنّظام الأوروبّيّ العامّ سواء كان سياسيا أو إداريا أو إجتماعيا أو حتّى دينيا على أساس التّمييز في هذا الإعتراف بين الإختيار والضّرورة من ناحية ومن ناحية أخرى بين الشّرعية والمشروعية. ذلك يعني أنّ الإعتراف هو مفتاح المواطنة والولاء وأنّ ذلك لا يعني الإعتراف العقديّ بما لا يقرّه الإسلام إقرارا صحيحا صريحا ولكنّه يعني مباشرة الإصلاح الممكن على قاعدة أنّ الله لا يكلّف نفسا إلاّ وسعها. كما أنّ ذلك الإعتراف يسمح بإستثمار هذا النّظام نفسه لحماية الوجود الأوروبّيّ المسلم. حالنا وذلك الإعتراف مختلف. فإذا كان ذلك مضمونا في حدود دنيا عند القيادات والفاعلين بصفة عامّة فإنّه في أدنى مستوياته في طوائف أخرى. بل هو محلّ إنكار كبير وشديد من طبقات مسلمة أخرى. ولا شكّ

أنّ خطاب الإنكار يلقى الرّواج الأكبر في حين يظلّ الخطاب الآخر ـ المسنود من السّيرة الملزمة في كلّياتها العظمى ـ منبوذا. الجهد هنا جهد مزدوج: جهد التّوعية مع الصّبر الجميل والطّويل. وجهد المضيّ في ذلك الإعتراف والتّعبير عنه تعبيرا بالكلمة والفعل وتأسيس وثيقة تحويه

الولاء السّياسيّ والإداريّ والقانونيّ العام

الولاء ثمرة الإعتراف آنف الذّكر. إشكالية الولاء في ثقافتنا الفقهية إشكالية شائكة وكلّما تلبّدت سماء العلاقات بين الأمّة وغيرها بالحروب والعداوات والهجومات إزداد الطّين هنا بلّة. وتجمّعت غيوم الجهل حول هذه القيمة التي حفل بها القرآن الكريم أيّما حفل. تراثنا عالجها بما يناسبه. من مثل إبن تيمية الذي يعتمد عليه هنا بالكلّية تقريبا. إذ أنّ الرّجل كان يعالج هذه القيمة في ضوء العداوات التي تلقاها الأمّة من التّتار من جهة ومن آثار حروب الفرنجة من جهة أخرى. ولكن شاع الجهل في أكثر طوائف الشّباب المتديّن حديثا وغاب صوت العقل والعلم والحكمة إلاّ قليلا. الولاء ولاءان : ولاء عقديّ لا يكون إلاّ لله ورسوله عليه السّلام ولأمّة الإسلام. والأصل هو ألاّ يكون الولاء إلاّ ولاء واحدا. ولكنّ الله خلقنا للإبتلاء وليس للحالات العادية التي ليس فيها مفاجآت ومغالبات ومجاهدات وإنكسارات. ومن ذا جاء الولاء السّياسيّ ـ وهو الولاء الثّاني ـ من بعض الصّحابة ـ كما رأينا مع أبي بصير ـ ولاء منفصلا عن الولاء العقديّ. وأقرّ ذلك ﷺ. الأمر يعود بنا اليوم إلى أن يكون الولاء ولاءين. ولاؤنا لدولة أوروبا يعني تفعيل قيم المواطنة. إذ لا مواطنة بدون ولاء. ولا ولاء بدون إعتراف. هذا منطق سليم يقرّه الإسلام. ولا يشغب أيّ ولاء على شقّه الآخر. إنّما

يحتمل الإسلام كليهما. وتجربة مهاجري الحبشة بقيادة جعفر خير نبراس ومثال. إذ كان ولاؤهم السّياسيّ والقضائيّ والإداريّ والوطنيّ بالتّعبير المعاصر كلّه لدولة مسيحيّة بالكامل. وأقرّ ذلك عليه السّلام ولم يشغب ذلك على ولائهم لله ورسوله ﷺ وأمّة الإسلام. وليس ذلك كما يهرف الذين لا يعلمون من باب الخديعة والمراوغة والكذب والحيلة والمكر. إنّما هو من باب التّمييز بين الأشياء أمارة علم وعلامة فقه وإشارة حكمة. وهو الأمر الذي علّم له الفقه بالحكم الدّيانيّ والحكم القضائيّ. أو بالتّمييز بين ما يتّصل بالعقيدة وما يتّصل بالعمل. بل إنّ صرف الولاء الدّنيويّ في أوروبا من لدن المسلم لغير أوروبا لهو الخيانة نفسها. وعلى مثل ذلك بنى ﷺ دستور المدينة حتّى وقّع الإسرائيليّون كلّهم وغيرهم على الولاء السّياسيّ لدولة المدينة وهم على غير دينها. ومرّة أخرى فإنّ دوننا ودون هذه العقبة الكأداء جبالا من الوعي. وما من خيار عدا خيار مواصلة الكفاح توعية وصبرا

دليل علميّ يجمع الولاءات ويميّز بينها في الآن نفسه

أقترح إنجاز دليل علميّ معرفيّ متخصّص وبلسان ميسّر وبكلّ اللّغات الأوروبّية يفصل القول في مشكلات الولاء والبراء جمعا بينها من جهة وتمييزا بينها من جهة أخرى. وهو جهد لا مناص منه أن يظلّ كلّ واحد منّا يصرّف ذلك بحسب ما إتّفق له من علم أو هوى أو وجهة نظر. ذلك أنّ شبكة الولاءات ليست بين أوروبا والأمّة الإسلامية فحسب. إذ هناك ولاءات داخل الأمّة ذاتها. وهي كذلك تفعل فعلها السّيّء الخبيث في تمزيق ما ظلّ قائما حتّى اليوم. ومن ذلك على وجه الخصوص ولاء المسلم الأوروبّيّ القحّ

كابرا عن كابر لدولته وبلاده وعشيرته وقومه. نحن نعلم جميعا أنّ شغبا كبيرا يلفّ هذا الأمر إذ إرتفعت أصوات الحمق ويجد هذا المسلم نفسه في حرج فهو ملزم بتغيير إسمه الذي نشأ به وعليه وملزم بالهجرة ـ هجرة مادية أو شعورية ـ من قومه وغير ذلك ممّا دفع بعدد غير يسير من هؤلاء إلى أرض الحروب فماتوا. لا مناص في رأيي المتواضع من دليل علميّ يقول القول الفصل في هذا الأمر وبلغات أوروبا. ذلك خير من كثير من التّشويش والشّغب

الإنصهار في منظومة المواطنة واجبات وحقوقا

ممّا قرّره الإسلام أنّ المواطنة ـ بما هي عقد إجتماعيّ حضاريّ يجمع الواجبات والحقوق بمثل ما يصون الخصوصيات ـ ثمرة الإشتراك في الموطن. أي في الأرض وتشابك المصالح وتبادل المنافع. لو لم تكن في المدوّنة الإسلامية السّياسية عدا هذه لكفته. إذ سبق بها كلّ الحضارات التي شيّدت ثقافتها على أساس المواطنة. وقليل منها من وفّاها حقّها. قارن بنفسك وضع المواطن الإسرائيليّ في دستور المدينة مع وضع المسلم في دستور أيّ بلاد أوروبّية. ومن ذا فإنّ إعادة إستيعاب قيمة المواطنة على ذلك الأساس الإسلاميّ الأوّل واجب من واجبات هذا الوجود. ومن ثمّ تسنّى له تفعيل ذلك. من معاني ذلك الإنصهار المطلوب المطالبة بحقّ الجنسيّة الذي يمكّن الإنسان من حقوق أخرى في الحقل السّياسيّ وغيره ومن التّبوّؤ لأداء واجبات أخرى أوسع مدى لهذه الأوطان. ومن ذلك كذلك أداء الواجبات المالية والجبائية وغير ذلك. ممّا يجعل كثيرا من مسلمي أوروبا غير متعبّئين لهذا كثيرا شعورهم بالغبن مقارنة مع غيرهم حتّى

من الذين هم من أصول أجنبية مثلهم ـ بله الأوروبّيين الأقحاح ـ هذا صحيح ومقدّر دون ريب. ولكنّ الخطوة المطلوبة هي مواصلة السّير على درب إكتساب المواطنة الكاملة والصّبر على ذلك والتّوعية به والتّكافل عليه. وليس الإنزواء أو الإنعزال أو التّسليم لقوى يمينية متشدّدة متطرّفة. صحيح أنّ بلوغ مستوى صحيفة المدينة بعيد المنال. ولكن يحسب للمرء عند الله ما بادر به لقوله سبحانه : ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثمّ يدركه الموت فقد وقع أجره على الله

توسيع دوائر الحرّية والحقوق والمسؤولية

ليس كالإسلام حاضّا على المقاومة دون الحرّية لكلّ إنسان حتّى لو كان مختلفا مع المسلم عقيدة أيّما إختلاف. ينبغي تربية النّاشئة على أساس أنّ الإسلام شجرة ـ ككلّ شجرة ـ تنمو بماء الحرّية وتذوي بسموم الإكراه. من أبواب التّعاون على ذلك الإنخراط في الأحزاب الأوروبيّة سيما الأدنى منها إلى قضايا الحرّيات الحقيقية التي لا تميّز بين النّاس على أساس الدّين أو اللّون أو العرق. ومثل ذلك الإنخراط في مؤسّسات المجتمع المدنيّ الأهليّ. أوروبا مجتمع يكتظّ بمئات الآلاف من المنابر في كلّ المهارات. كما أنّ الحرّيات المبسوطة عادة ما تيسّر بناء تلك المنابر والفعاليات وما من ريب في أنّ الدّولة الأوروبّية تتأثّر بصوت مجتمعاتها. لأنّها دول تحرص على الدّيمقراطية ونيل رضى النّاس. ومن ذا ترصد دوما إتّجاهات الرّأي وتصنع لها منابر وشركات. بل تساهم في صنع الرّأي. والحقيقة أنّ صناعة الرّأي العام ولو جزئيا قضية تحتاج كلّ إنتباه ويقظة وعزم وحزم. أليس ذلك هو معنى الدّعوة الإسلامية؟ ومعلوم أنّ كلّ دولة في الأعمّ الأغلب تسعى إلى

تضييق كلّ إتّجاه تحرّريّ لا يتماشى وسياساتها. ومن ذا فإنّ خير عائق يحول دون ذلك هو المجتمع الأهليّ المدنيّ وفعالياته ومنابره والعبرة بوعي أهله. هي إذن منافسة بين مجتمع ودولة. وتلك هي الدّيمقراطية. وبسبب إنبساط الحرّيات فإنّ عملية التّوعية ممكنة ولو في الدّائرة الإسلامية ذاتها ناهيك أنّ حركة الحقوق الدّولية التي تشقّ الأرض يتقوّى عودها مع إنديا ح ثورة المواصلات وتمرّد الكلمة بكلّ صورها عن الأطواق التي كانت تحبسها وأنّ جزء مهمّا من الأوروبّيين يتابعون ذلك ويتعاطفون معه. إذ أنّ التّحرّر ليس غريزة بشرية فحسب. بل هي أقوى غريزة لمن يفقه كيمياء الإنسان فقها حقيقيا بعيدا عن الأوهام

فضاءات للحوار وعيا بضرورة العيش المشترك

على أبناء هذا الوجود وبناته عمارة المنتظم الحزبيّ من جهة ومن جهة أخرى عمارة الفضاءات المجتمعية وهي متاحة يسيرة لأجل تدريب أنفسهم أوّلا ومن معهم من ذرّية وشباب ونساء ورجال على ثقافة العيش المشترك والقبول بالآخر وفقه الحوار. ليس صحيحا أنّ الآخر هو الذي يوصد أبواب الحوار في وجه المخالف. الآخر يفعل ذلك حتما محتوما. ولكنّ جزء كبيرا ومهمّا منّا نحن كذلك مازالت بضاعته هنا مزجاة. بل يئنّ تحت فقر مدقع لا علاقة له بتعاليم الإسلام. نحن نحتاج إلى ذلك الوعي أوّلا. وفي أثناء ذلك يرى الآخر ذلك منّا ويسمعه وقد يشارك فيه. ومع الأيّام تولد تلك الثّقافة. سيما في البلاد الأوروبّية التي مازال الآخر فيها يشكو غربة. أي البلاد الأوروبيّة التي تتوتّر فيها المشاحنات العرقية ويعلو فيها صوت رفض الآخر من مثل ألمانيا وفرنسا وسويسرا و النّمسا خاصّة فيما

أعلم. الإنسان ليس حجرا متكلّسا لا يتغيّر ولا يتأثّر. هذه فكرة لا رصيد لها في الحقيقة. إنّما لا يتأتّى ذلك التّأثّر إلاّ من بعد مجاهدات ومقاومات ومغالبات وحوارات لأجيال عقب أجيال. ومن ذا فإنّ الصّبر هو مفتاح كلّ معالجة. أسّ الحوار موجودة. وليست هي الدّين. إذ مازلنا في الأعمّ الأغلب دون ذلك ومن الجانبين. ولكنّ أسّ الحوار هي إمكانية تفعيل المواطنة على قاعدة الواجبات والحقوق وتكافؤ الفرص وعلى قاعدة كرامة الإنسان وغير ذلك من القيم التي شيّدت عليها الحضارة الغربية ذاتها. كلّ ذلك يتطلّب بناء فضاءات وتشييد منابر وخطابا معتدلا يعرف ماذا يقدّم وماذا يؤخّر. وغير ذلك مما لا أرب لنا فيه الآن. هناك فكرة سيّئة خاطئة إنتشارها فينا له رصيد وهي أنّ الأوروبّيين كلّهم أو حتّى أكثرهم ـ سيما من أبناء الشّعب وبنات المجتمع ـ يحملون الفكرة العنصرية ذاتها التي يحملها كثير من الإعلاميين والسّاسة وغيرهم. كثيرة هي الأوهام التي تملأ الرّؤوس هنا أو هناك. كمثل الأوهام التي تملأ رؤوس كثيرين منهم أنّ الإسلام دين الإرهاب. وأنّ المسلم هو في الأصل مشروع تفجيريّ إرهابيّ. لا مناص من تذويب جلد ثخينة من سوء الظّنّ وإعادة بناء قنطرة التّفاهم وبناء المصالحات والمشتركات وعلى قاعدة : لكم دينكم ولي دين

تقديم أولويّات العلوم والمعارف في كلّ التّخصّصات

ليس على هذه الأولويّة أيّ خلاف من النّاحية النّظرية. عدا أنّ الأمر متروك لأجتهادات كلّ أسرة تعالجه بما تيسّر لها من ناحية. وأنّ الإهتمام الجماعيّ به ليس على قدر التّحدّي المعروف من جهة أخرى. كما إنّي أرى أنّه ـ ولئن كان التّوازن بين الأمرين مطلوب ـ فإنّ الأولويّة في السنوات

القابلات لتوجيه الطّلبة تكون للعلوم الإنسانية والإجتماعية. وذلك بسبب أمرين : أوّلهما أنّ هناك نقصا فادحا في الإطارات الأوروبّية الإسلامية في هذه التّخصّصات. إذ أنّ أكثر طلبة العلم يتوجّهون إلى التّخصّصات التي سمّاها الغرب ـ بغير وجه حقّ ـ علوما صحيحة. وثاني الأمرين هو أنّ هذا النّوع من العلوم ـ أي التّخصّصات الإجتماعية والإنسانية ـ يساهم بمستوى رفيع في تقدّم العملية الحوارية الدعوية. إذ أنّ النّاس يحتاجون لهدايتهم بصفة خاصّة ـ سيما المثقّفين والأكاديميين ـ إلى إطارت متشبّعة بهذه التّخصّصات. حتّى في بلادنا العربيّة تجد أكثر العاملين للإسلام من أهل التّخصّصات العلمية ـ المسمّاة زورا صحيحة ـ في حين أنّ هناك ندرة ـ بل فقرا ـ في العلوم الإجتماعية الإنسانية الكفيلة بتصحيح قضايا الإلهية والإنسان والحياة والموت وغير ذلك من المسائل ذات الصّلة الوثيقة بالحوار والدّعوة.

وتجد في مقابل ذلك أنّ أكثر الحاملين لشهادات عليا في هذه العلوم هم من أعداء الإسلام المؤدلجين الذين يجرّون وراءهم جيوشا من النّاس ممّن لا دراية له ولا وقت أصلا للحصول على حدّ أدنى من هذه العلوم التي تصنع الإنسان وتكسبه منهاجا تفكيريا صحيحا. فقه الدّين ينتمي إلى هذه العلوم المهجورة. ومن ذا نشأت التّديّنات المزيّفة. أي أنّ هذا أحد أسبابها وليس هو السّبب الرّئيس ولا الوحيد.

الفلسفة ـ التي تكون حتّى عند المتديّنين وبعض الدّعاة مزحة ثقيلة ـ كفيلة بتصحيح كثير من التّصوّرات المنحرفة. ومثلها علوم الإجتماع والإدارة التي يحتاجها الوجود الأوروبّيّ المسلم لحسن إدارة المؤسّسات والمساجد والمنظّمات والجمعيات. ومثلها كذلك علوم السّياسة والعمران

والقانون وعلوم النّفس. وغيرها كثير مازال فقرنا فيه مدقعا. إذ أنّنا بحاجة إلى إطارات أوروبّية إسلامية مؤهّلة للقيادة والإدارة والحوار في القضايا ذات الطّابع الفكريّ الثّقافيّ. وليس مجرّد إمام يؤمّ النّاس في خطبة جمعة أو في صلاة أو يوجّههم دينيا فحسب. سيما اليوم مع إنديا‌حات الثّورات التّقنيّة فإنّ الكلمة الصّحيحة البليغة يزع الله بها ما لا يزع بدول وحكومات وصولجانات

تقديم أولويّات الأسرة والمرأة والطّفولة والشّباب

لا خلاف كذلك على هذه الأولويّة من النّاحية النّظرية. ولكن عمليا ليس هناك مجهودات كبرى سيما في المجال الجماعيّ المؤسّس. كثيرا ما نقدّم أولويّة الشّباب ضرورة بسبب التّورّط في جرائم المخدّرات وغيرها. ولكنّا نهمل كثيرا قطاع الطّفولة الذي يصبح هو القطاع الحارق بعد سنوات قليلات. يترك هذا للمسجد يعالجه بإمكانيات بسيطة وبما يشبه الفقر المدقع في العلوم الإجتماعية والنفسية تعاطيا مع الطّفل .

نحن نواجه حرمان المرأة المسلمة الملتزمة بخمارها في المدرسة والمعهد والجامعة ثمّ في مجالات التّكوين والعمل ورغم ذلك نستكين للأمر الواقع وقد تضطرّ المرأة إلى الفرار من ساحة المقاومة بالكلّية. من مفاتيح الحوار والمواطنة وغيرها من القيم التي نحتاجها العناية بالمرأة بصفة خاصّة وبالعلوم والمعارف بصفة أخصّ ذلك أنّ لغة أوروبا اليوم هي هذه العملة : المرأة المثقّفة الجامعية. ومن ذا فلا مناص من مقاومة الباطل بحقّ مثله عددا وعدّة. جيش من النّساء الغربيات اللاّتي يخاصمن الإسلام وينجحن

في ذلك أيّما نجاح في قضية المرأة والمجتمعات الأوروبّية تصدّق ذلك وتثني عليه. فما المانع من إرصاد ميزانيات وجهود ومؤسّسات لتخريج جيش لجب مثله؟ هناك موانع فكرية ثقافية هي الحائل الحقيقيّ الأكبر. ولا أهوّن من الموانع الأخرى. ولكنّها مقدور على إزالتها.

الأسرة المتوازنة هي البديل الوحيد الذي يقدّمه الوجود الأوربّيّ المسلم لمجتمعاته الأوروبّية وشعوبها. وما عدا ذلك فلا منافسة في أيّ شيء. الأسرة هي الهدية الإسلامية الوحيدة التي نملك ثمنها. وهي الكفيلة بتجفيف منابع التّهرّم العمرانيّ من جهة وتقديم فكرة صحيحة عن الإسلام من جهة أخرى. ولكنّ هذا الحصن الذي جعله الإسلام لنا آخر حصن نتمترس خلفه هو نفسه ليس على ما يرام. وأظنّ أنّ كلّ إمام يستفتيه النّاس ويبسطون أمامه مشاكل الأسرة من طلاق وعنف وغيرهما يعلم أنّ هذا الحصن مهدّد فينا نحن. وقديما قالت العرب : فاقد الشّيء لا يعطيه

مقاومة أسباب العنف ومقوّمات الإكراه

صحيح أنّ مؤسّساتنا تندّد بالعنف عندما يقع. ولكنّ هناك خطوة أخرى أولى وأحرى في نظري. بل هي خطوات منها التوعية الغذائية المطلوبة فينا نحن أوّلا. أي لطفولتنا وشبابنا. ومنها الإنخراط العمليّ في مقاومة مظاهر العنف والإرهاب والإكراه من جانبنا نحن أوّلا وذلك بإنشاء منظّمات وجمعيات ومبادرات حيّة عاملة في هذا الغرض. أسباب العنف والإكراه متغلغلة في أحشاء كثيرة ومن الجانبين. ومن ذا فإنّ المقاومة حرب لا يهدأ لها أوار. وليس يعالج الأمر ببيان تنديديّ إستنكاريّ فحسب. هذا موقف

سياسيّ لا مناص منه. ولكنّه لا يبني رشدا ولا وعيا. ومثل ذلك الإحالة في كلّ عدوان جديد على العنف من الضّفّة الأخرى. أي بإسم اليمين أو النّازية أو غيرها أو تبرير ذلك بالمظالم الواقعة. الخلاصة هي أنّ العنف متأصّل في الإنسان فطرة وأنّ مقاومته حرب لا تهدأ وأنّها تبدأ مع الطفولة والأسرة وبالتّوعية العملية أوّلا وأنّ الأنخراط في ذلك عمليا أنجع ويقتضي مثل غيره من الحروب صبرا جميلا وطويلا

مقاومة التّهرّم السّكّانيّ وقحط الرّحم الأوروبّيّ

صيرورة المجتمعات الأوروبّية إلى التّهرّم ـ بإختلاف في الدّرجة ـ أمر لا جدال فيه كما أنّ أسبابه ـ أو بعضها على الأقلّ ـ قضية لا خصومة حولها. السّؤال هو : أيّ موقف لا مناص منه من الوجود الأوروبّيّ المسلم؟ نحن جزء من هذه الأمّة الأوروبّية وجزء من ولائنا لها مصروف. ومن ذا فإنّه لا يليق بنا وبالدّين الذي ننتمي إليه إلاّ إتّخاذ موقف إيجابيّ يجفّف منابع ذلك التّهرّم. لا أظنّ أنّ حول هذا كلّه خلاف. ويظلّ السّؤال العمليّ هو : كيف؟ هنا لا مناص من حوارات صحيحة تعيد بنا الأسباب وتستشرف المعالجات

تقديم الأولويّة الإعلاميّة والفنّية وثقافة الكلمة

مرّة أخرى لا خلاف على هذه الأولويّة. ولكنّ الجانب العمليّ لم يأخذ فيما رأيت حظّه المطلوب. الأمر في تقديري يعزى إلى عدم التّعبّؤ الكافي من كثير منّا للتّعاون والتّكافل على هذه القضية. مجهودات فردية كثيرة

ومبادرات جزئية محدودة تكاد لا تحصى. ولكنّ التّضامن الجماعيّ حول هذه المسألة الملحّة لا أظنّ أنّه أخذ حظّه كما ينبغي له. عزو هذا التّأخير لنقص في الموارد المالية فحسب لا يقنع فيما رأيت. ليس تهوينا من ذلك ولكنّه ليس هو العامل الحائل حقيقة دون هذا. لا إخال أيّ واحد منّا في حاجة إلى التّذكير بحيوية السّلاح الإعلاميّ في هذه الأيّام. وإذا كان الإعلام الفضائيّ دونه الذي دونه فإنّ الإعلام الإلكترونيّ متاح وكلفاته المالية وحتّى البشريّة أهون من كلفات الإعلام الفضائيّ رغم أنّ هذا الأخير أجدى وأوسع مدى وتأثيرا. أمّا الجانب الفنيّ بما هو صناعة فنيّة سنمائية ومسرحية وتشكيلية وغنائية وموسيقية وغير ذلك فإنّ هناك عوائق فكرية ثقافية مازالت تحول دون إنطلاقه. هو الآخر مؤثّر كلّ التّأثير بل ربّما يكون بمثل تأثير الإعلام الفضائيّ والإلكترونيّ. عدا أنّنا لسنا في إحتكاك مع أهل هذا المجال ولا نقدّر حجمهم.

المدّ السّلفيّ الأخير الذي هجم على المنطقة تغذّيه أنظمة خليجية معروفة ساهم في تدحرج هذه الإهتمامات لدينا وخاصّة الإهتمام الفنّيّ. كلّ ذلك يعدّ مقاومة بالكلمة التي أولاها الإسلام ـ قرآنا وسنّة ـ الذي أولاها من حظوظ التّأثير والتّغيير والإصلاح. المشكلة هنا ليست نظريّة بأيّ حال. ولكنّها عملية من جهة وبعضها ثقافيّ فكريّ من جهة أخرى. ومن جهة ثالثة فإنّها مشكلة نقص في التّضامن والتّعاون والتّكافل وإنحياز إلى المجهودات الفردية. وهي كثيرة. ولكن لا أثر لها في خضمّ حرب إعلامية فكرية ثقافية وفنيّة مضطرم لهيبها. ولا شكّ أنّ المقصود من كلّ هذا أن يكون باللّغات الأوروبّية

تأسيس معاهد لتكوين إطارات أوروبّيّة إسلاميّة

المنطلق هنا هو أنّ التّأثير فنّ ومهارة وعلم ومعرفة وتجربة. وليس هواية يحسنها كلّ من هبّ ودبّ. ومن ذا فإنّ التّأثير وتشكيل الرّأي العامّ ومنافسة أفكار أخرى تبثّ الفساد لا يكون إلاّ برجال مؤثّرين ونساء. ولا يتأتّى التّأثير إلاّ من بعد علوم ومعارف وتخصّصات. ثمّ تجربة يراكمها الزّمان. وكلّ ذلك قلّ من يحصّله فذّا بطريقة عصامية دون معاهد وكلّيات. وليس المقصود من هؤلاء أئمّة تقليديين كما هو الحال اليوم ولا رجال مساجد فحسب أو لا يحسنون عدا لغة الدّين ومخاطبة المسلمين والمتديّنين. إنّما المقصود من هذا المشروع هو إعداد إطارات إسلامية فاعلة مؤثّرة أينما حلّت وإرتحلت وفي أكثر القضايا المطروحة اليوم وبلسان أوروبّيّ وجامعة بين زاد شرعيّ دينيّ صحيح بل ومطعّم بنكهات التّجديد والإجتهاد. وبمثل ذلك زادا واقعيا في مختلف القضايا سياسية وإقتصادية وإجتماعية وبيئية وغير ذلك.

هو مشروع طويل المدى ويحتاج إرصادات مالية وبشرية وزمنا وصبرا. ولكنّ عاقبته طيّبة إذ أنّ الذين يقع إعدادهم هم جيش لجب يتولّى مقاليد التّأثير الحقيقيّ في أوروبا وبلسان أوروبا وبقضايا أوروبا. وهم أبناء أوروبا وبناتها. وليسوا غرباء عنها في أيّ شيء. من تجربتي أنّ الأوروبّيّ أكثر تأثّرا بمثله. أمّا عندما يستمع إلى الأجنبيّ عنه فهو يتردّد في قبوله حتّى لو عقله فؤاده كلّ العقل. ولا مناص من التّذكير أنّ رجال هذا المشروع لا بدّ أن يكونوا من الرّجال والنّساء. إذ أنّ المرأة نفسها أكثر تأثّرا بأختها. ليس المقصود هو تزويد هؤلاء بالعلم فحسب سواء كان علما

شرعيا أو واقعيا. إنّما المقصود تزويدهم بالتّجارب الحيّة والزّجّ بهم في أسواق الحوار والتّأثير ومعركة الحياة. هناك معاهد تتولّى الزّاد العلميّ الشّرعيّ. ولكن ليس هذا هو المقصود الوحيد. كما أنّ من التّخصّصات المطلوبة تمكين المسلمين من إداريين ناجحين ومتصرّفين أنجح في المال العام. ذلك أنّ القيادة فنّ ومهارة. وليست كما نعالجها نحن اليوم. أي أقدمية في أوروبا أو علما دينيا أو شهادة جامعية أو غير ذلك. أليست أكثر مؤسّساتنا تشكو معضلات إدارية ومالية حتى فاحت في بعضها روائح الفساد الكريهة؟

الإجتهاد لأجل إكتساب قوّة مالية وإقتصادية

لا خلاف على أنّ القوّة المالية مطلوبة بمثل القوّة الفكرية. لست أدري إذا كان التّدين هو الذي يحول دون ذلك أم لا. ولا يعني ذلك التّمرّد على تعاليم الدّين الصّحيحة الصّريحة. حاشا لله. إنّما المقصود بسط أكثر ما يمكن بسطه من مقتضيات المرحلة الإنتقالية التي تحتاجها الجماعات والأمم التي هي بصدد إنشاء مشاريعها في ظروف متحوّلة. الوجود الأوروبّيّ المسلم في يمّ الحاجة إلى فقه إنتقاليّ صحيح يرعى التّعاليم الصّحيحة الصّريحة في ضوء مقاصدها المعلومة من جهة وحاجياته وضروراته من حيث أنّه وجود جماعيّ جامع من جهة أخرى. لا شكّ أنّ المجلس الأوروبّيّ للإفتاء والبحوث قد تقدّم على هذا الدّرب خطوات كبيرة عملاقة وأسّس لفقه إنتقاليّ يرعى الأمرين معا. وهذا مكسب عظيم. بل إنّه في تقديري أكبر مكسب من مكاسب الوجود الأوروبّيّ المسلم في غضون العقود الثّلاثة الأخيرة. لست من أهل الإختصاص حتّى أتوغّل في بيان هذا. ولكنّي أدعو إلى التّسلّح بالجرأة الأدبيّة

الكافية لخوص معركة الإنتقال. وفي الشّريعة ما يكفي لخوضها. هناك مشكلة تعوّق هذا وقد لمستها بنفسي وهي أنّ كثيرا من أبناء هذا الوجود وبناته مازالوا دون ذلك بكثير من حيث الوعي والفهم والإطمئنان. وهذه مسؤولية الأئمّة والخطباء والمرشدون من رجال ونساء ومن في حكمهم ممّن يتولّى القيادة والرّيادة والتّعليم. هذا الجهد منقوص فيما رأيت. بل ربّما يسير بعضه في الإتّجاه المضادّ. القوّة المالية لهذا الوجود هي قوّة لبلدان أوروبا نفسها ودولها وشعوبها. وليست هي قوّة موازية. إذ أنّ كلّ نقاط القوّة المنشودة إنّما تكون تحت سقف الولاء لأوروبا فيما يتّصل بها.

من مظاهر القوّة المقصودة إمتلاك هذا الوجود ليس لمساكنه فحسب. ولكن كذلك لمؤسّساته التّعبّدية والعلمية والفكرية والتّرفيهية والرّياضية والتّجارية وغيرها. كما أنّ هذه القوّة المنشودة لا تكون ذات وظيفة حقيقية حيوية إلاّ إذا تكافل عليها أكثر أبناء هذا الوجود وبناته. هنا على وجه التّحديد ليس هناك حدّ من الإجماع أو شبه الإجماع على هذا. ومرجع الأمر إلى نقص كبير في عمليات التّعليم والتّوعية والتّفقيه. إلى أيّ حدّ يمكن إعتماد آلية التّدرّج التشريعيّ التي إعتمدها الإسلام آلية معاصرة لمعالجة المشكلات والمواءمة بين تعليم شرعيّ صحيح صريح معلّل مقصّد وبين حاجة أو ضرورة؟ أهل التّخصّص يجيبون ويعالجون

توحيد رأس الوجود الأوروبّيّ المسلم في كلّ بلاد على الأقلّ

ما لا يقبل هو أن يقال إنّ هذا هو الواقع ولا مناص من القبول به. وأنّ هذا أمر يريده الإسلام أو لا يناهضه. إختلافي هنا مع القائلين بذلك شديد.

الأصل هو رأس واحد وفي كلّ مؤسّسة. بدء من الأسرة حتّى الدّولة. الأصل شيء نعتقده ونؤمن به. والواقع شيء آخر نقبل به مقرّين عدم شرعيته. ولكن متدرّجين في إصلاحه. أمّا أن نألف الواقع غير الإسلاميّ في أيّ حقل إلفا يجعلنا نضفي عليه المشروعية الدينية فهو أمر لا يقبل. ليس سرّا أنّ كلّ الحكومات الأوروبّية مسرورة بتشظّي الرّأس الإسلاميّ في أوروبا إذ هي تجد فيه من الثّغرات ما تعوّق إصلاحات وتؤخر حقوقا. قضايا كثيرة كان يمكن حسمها منذ سنوات طويلات لو توفّر لنا رأس واحد. حتّى لو كان ذلك الرّأس بغير رضانا. فكيف إذا كان برضانا. من ذلك المساجد والمقابر والمسابح المختلطة في المدارس وحريات المرأة في ملبسها وغير ذلك من قائمة طويلة.

الذين يعزون هذا التّمزّق الموهن إلى العنصريات لا يصيبون كبد الحقيقة. ذلك أنّنا نجد تفرّقات في العنصر الواحد وفي المذهب الواحد. هذا داء دفين لست أدري متى يكتب الله منه برء؟ وعلى كلّ حال أمامنا طريقان متكاملان : طريق التّوعية بضرورة الرّأس الواحد في كلّ بلاد أوروبيّة على الأقل. وهو طريق وعر طويل وشائك. ولكن لا مناص من سلوكه. وطريق توفير الحوارات لعلّنا نصل إلى تأسيس تنسيقيات تضمّ شتات عشرات الرّؤوس التي تمثّل المسلمين في كلّ بلاد أوروبّية. أي أنّه لا مناص من توخّي التّدرّج توعية وإنشاء لتنسيقيات لعلّها تتحوّل يوما إلى تمثيليّات قارّة رسميّة. وليكن ذلك داخل كلّ عنصرية وعرق ومذهب أوّلا. ثمّ يتطوّر الموقف شيئا فشيئا لعلّنا نطوي هذه الصّفحة التي تحول حقّا دون فضّ مشكلات كثيرة وتعوّق معالجات ملحّة. لعلّنا نحلم يوما بتنسيقية أوروبّية تجمع شتات مسلمي أوروبا

مراجعة قضية الهوية على أساس المشاركة وليس الانعزال

هذه فكرة أساسية مركزية قوامها أنّ الخوف على الهوية الإسلامية من الجانب الإسلاميّ مبالغ فيه. ما كان الإعتدال في شيء إلاّ زانه فعلا. وما نأى عنه إلاّ شانه. ربّما يعذر السّابقون الأوّلون ـ الوجود التّركيّ ربّما في البدء ـ إذ حرصوا على الهوية الإسلامية حرصا جعلهم ينأون بها عن الزّجّ بها في معركة الحياة الأوروبّية. وحذا من جاء بعدهم حذوهم. قد يكون هذا في البداية مفهوما ومقدّرا. ولكنّ الأصل ـ ومنذ البداية في الحقيقة كما هو مبسوط في السّيرة ـ هو ألاّ يجعل لتلك الهوية مكان خاصّ بها فيه تتغذّى بإسم المحافظة عليها. هي معالجة على كلّ حال قد ينشب حولها الخلاف. ولا بأس من الخلاف حولها. ولكنّ الذي أفدته من السّيرة هو الزّجّ بالهوية في معركة الحياة بكلّ ما فيها وبكلّ ما لها وبكلّ ما عليها. كمن يزجّ بعملته المالية في سوق المال ليعرف بنفسه ـ وعلى وجه الحقيقة ـ ما هي قدرة تلك العملة على المقاومة وكم هي قيمتها حقيقة لا دعوى. الإنسان هو عملة في هذا الكون. بل هو العملة التي جعلها الله سبحانه سيّدة في الكون.

ومن ذا فإنّ الهوية التي خلقها الله سبحانه ووعد برعايتها وحفظها لا يليق بها أن تكون في الرّفوف أو الصّفوف الخلفية كمن يرعى وليدا رضيعا يخشى عليه. الهوية عندي لا يخشى عليها. ولا يعني ذلك أنّ كلّ مسلم سيظلّ ثابتا على هويته. أو أنّ رياح العولمة لن تؤثّر في أيّ واحد منّا.لا. فقد إرتدّ صحابيّ أو أكثر من ذلك بقليل وقد سبقت له رضاعة من حلمة محمّد نفسه ﷺ كما رضع الآخرون. ولكن المعالجة مزدوجة: رعاية لتلك الهوية

في محطّات خاصّة دروية منتظمة (كان يفرغنا ثمّ يملؤنا) من جهة وزجّ بها أي برجالها ونسائها في معركة الحياة من بعد ذلك وقبله من جهة أخرى.

والمثابرة على التّعهّد والتّغذية والإصلاح كفيل بجبر ما فسد. ولا ينتظر منذ البداية سلامة كلّ مسلم أو مسلمة. إنّما العبرة أنّ مصالح المخالطة والمشاركة والمعاشرة والإعتراك أكثر من مصالح الإنعزال والإنحباس. ما يهمّني هنا تأكيده هو أنّ عوامل مهمّة جعلت من المخالطة والمعاشرة ونبذ العزلة ضرورة. منها مناخات العولمة نفسها. والثّورة الماردة للمواصلات التي تقتحم اليوم على كلّ واحد منّا مخدعه ومهجعه ليل نهار صباح مساء في علاقة حميمية لا يصبر عليها أحد ولا يرقبها أحد سوى الله سبحانه. كما أنّ الدّافع إلى ذلك أنّ الهوية الإسلامية اليوم في حالة هجوم. إذا صحّ التّعبير أو كما يجب أن يفهم فهما إيجابيا. إذ أنّ الهويات الأخرى كلّها تقريبا هي التي في حالة إنحدار وإنحسار. وأنّ الطّلب اليوم على الإسلام. وليس على غيره. ومن ذا فإنّه لا مناص من القطع مع السّياسة القديمة القائمة على حفظ الهوية حفظا يغلب عليه الإنعزال. سيما وقد رأينا بأمّ أعيننا أنّه لم يرتدّ أحد ـ تقريبا وفيما علمت ـ من شبابنا عن دينه. أمّا القول بأنّ نسبة كذا إنخرطت في المخدّرات أو في جرائم أخرى وهذا سبب لنبذ المخالطة والمعاشرة والعودة إلى المحاصرة والإنعزال فهو أمر لا يصمد بحجّة

كلمات أخيرات ثلاث

الكلمة الأولى: مراعاة الحال الغالبة على السّيرة

هذه ملاحظة مهمّة قوامها مزدوج. إذ سبقت الإشارة في ثنايا هذا الكرّاس إلى أنّ خللا منهاجيا في تدوين السّيرة تمثّل في الإهتمام بتدوين الملاحم العسكرية فحسب تقريبا. بما ينذر بنفاذ صورة غير صحيحة عن الطابع العامّ للسّيرة. سيما عند من يتعلّم السّيرة من تلك المدوّنات فحسب. دون غيرها. كما أنّ تلك الملاحم العسكرية نفسها كانت تحت سقف دفاعيّ بحت. ولا يضير قيمة الدّفاع شيئا أن غشيتها معان ليست منها. إذ أنّ الدّفاع عن الإنسان أن تناله رماح الإكراه قيمة عظمى وخلق شهم كريم. سيما أنّ الدفاع عن المدينة ـ عاصمة الدّولة ـ كان دفاعا عن وطن يقطنه غير المسلمين.

ومن ذا فإنّ قياس واقعنا على السيّرة بسبب ذلك عليه مراعاة فروق كثيرة وكبيرة. بل إنّه لا يضير القول أنّ المسلمين هم من كان يتعرّض للقتل والخوف دفاعا عن أمن وطن يسكنه غير مسلمين من ناحية. وأنّ حالات التّأسيس يعتريها مثل ذلك دوما من ناحية أخرى. وأنّ ذلك يعني اليوم عدم تخلّف المسلم الأوروبّيّ عن الدّفاع عن وطنه الأوروبّيّ في صورة تعرّضه لمثل ذلك. وإلاّ فإنّ الولاء الوطنيّ له وقيمة المواطنة تضحيان كلاما فارغا

الكلمة الثّانية: السّيرة: منهاج جامع لإصلاح الذّات والموضوع معا

لا مناص من العودة إلى ذلك المنهاج الإصلاحيّ الجامع من جهة. ولكن برؤية إستقرائية جامعة لا مجزّأة من جهة أخرى. ولإصلاح وجودنا الأوروبّيّ داخليا من جهة ثالثة قبل إصلاح متعلّقاته الموضوعية. هذا حقل ثرّ خصيب لمن يقبل عليه بعين معاصرة همّها إستنباط العبر لا شحن الرّؤوس بالمعلومات. لو سألتني عمّا أفدته من هذه المراجعة القصيرة لما تردّدت أن أقول : أنّي أفدت أنّي كنت جاهلا بمنهاج السّيرة الصّحيح في معالجة أوضاع شبيهة جدّا بأوضاعنا الأوروبّية اليوم. منبع جهلي هو نبذ النّظر الجامع من جهة تشبّثا بنظرة جزئية عقيمة ونبذ إجراء المقارنات بين واقعنا وواقعات سابقة ـ منها على وجه التّمثيل واقعات الحبشة ودستور المدينة وصلح الحديبية وغيرها ـ من جهة أخرى. ومن جهة ثالثة عدم تسلّحي بالعقل النّقديّ اللاّزم وقبول ما ينتهي إليّ سماعا وقراءة. خلاصة القول هي أنّ في السّيرة لمن يسلك مسلك حبر الأمّة ـ لسانا سؤولا وفؤادا عقولا ـ علاجات ثمينة ونفيسة لمشكلاتنا داخلية كانت أم موضوعية

الكلمة الثّالثة: شكر وإعتذار

أشكر قيادة المجلس الأوروبّي للأئمّة إذ إجترحوا هذا العنوان الجميل (السّيرة النّبوية وفقه الأولويات ـ تطبيقات أوروبّية) بصفة عامّة. وأشكر الشّيخ طه عامر الذي دفعني إلى الكتابة في هذا الموضوع بصفة خاصّة. كما أعتذر عن عدم القيام بواجب التّهميش لما ورد من آيات وأحاديث

نبوية وأعلام وغيرها بسبب ضيق الوقت فحسب. ولعلّي أستدرك ذلك في أوانه إن شاء الله تعالى. إعتمدت مجموعة من المصادر منها:

- فقه الأولويّات للإمام القرضاويّ
- نضرة النّعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم لثلّة من المختصّين
- كتاب السّيرة للمرحوم البوطيّ
- كتاب السّيرة للمرحوم المباركفوريّ
- كتاب السّيرة للدّكتور الصّلاّبيّ
- كتاب السّيرة للمرحوم السّباعيّ
- كتاب السّيرة لأكرم ضياء العمريّ
- ما شاع ولم يثبت في السّيرة النّبوية لمحمّد بن عبد الله العوشن
- حقوق المصطفى للقاضي عياض

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على خير المرسلين محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين

المؤلف

* كاتب وسياسي تونسي من مواليد 6 جوان 1955 بمدنين ، متزوّج وأب لستّة من الولد ولعشرة من الحفدة.

من مؤسّسي الحركة الإسلاميّة وانخرط فيها سنة 1976، تحمّل مسؤوليات قياديّة كثيرة منها عضويّة مجلس الشّورى من 1994 حتى اليوم ومنها عضويّة المكتب التّنفيذي ومنها الكتابة العامّة الجهوية وغيرها... سجن بسبب ذلك عام 1987 وحكم عليه بخمسة عشر عاما سجنا نافذا وبزهاء عشرين عاما غيابيّا أعوام 1992 و2010. أقام لاجئا سياسيّا في ألمانيا لمدّة تزيد عن عشرين عاما، اشتغل خطيبَ جمعة وإمام خمس وداعية وكاتبا، مؤلف لعدد من البحوث والدّراسات محبوسة بسبب العجز عن طبعها ونشرها.

* عضو الأمانة العامّة للتّجمع الأوروبّي للأئمة والمرشدين وعضو مؤسّس بهذا الهيكل الدعوي الأوروبي وعضو بهيئة الدّعاة والعلماء في ألمانيا وعضو مؤسّس بها كذلك وعضو مؤسّس بجمعيّة مرحمة للإغاثة بتونس وألمانيا 2015.

* متحصّل على شهادة التّقنية الإقتصادية للتّصرف دورة 1974، اشتغل متصرّف مساعد في عدد من الشّركات الوطنيّة من مثل الشّركة التونسية للكهرباء والغاز والشّركة الإيطالية التونسية للإستغلال النفط .

* صدر له ضمن سلسلة كتاب الإصلاح: «السلفيّة بين الجحود وبين الجمود» و «بل علمني كيف أفكّر» و «فقهنا السياسي من الظهور إلى الضمور، دراسة من القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة» و «من قصص القرآن» و «التدين الإسلامي: قواعده،أولويّاته،آفاته» و «مقدمة لبان موضوعي للقرآن الكريم» و له العديد من المقالات الصادرة بمجلّة الإصلاح .

* البريد الإلكتروني : brikhedi@yahoo.de

كتاب الإصلاح
الكتاب السابع والأربعون - مارس 2023
ISBN 978-9938-78-188-5
9 789938 781885